الطبعة الثالثة

عمار علي حسن

السلفي

رواية

دروب
ساحر الكتب
facebook.com/groups/636766159812251/

مكتبة الدار العربية للكتاب

حسن، عمار علي.
السلفي: رواية/ عمار علي حسن.- ط3.-
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2014.
296 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 - 719 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العربية 813
رقم الإيداع: 9929 /2014

©

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: رجب 1434 هـ - مايو 2014م
الطبعة الثانية: يوليو 2014م
الطبعة الثالثة: سبتمبر 2014م

جميع الحقوق محفوظة مكتبة الدار العربية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

عمار علي حسن

السلفي

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

العتبة الأولى

أنا، وصهريج بيتي، الذي سيهدمه الطامعون، دار معلقة في وجه الريح لها عتبة غير العتبات، وهذه فقط التي أكشفها لك؛ لأنها جلية كشمس نهار الصيف، منها البداية، ولا رجوع إليها، وبعدها حيرة مقيمة.

لم تكن البيوت هكذا قبل أن يولد أبوك، كانت من الطين الأسود مثل لحيتك الكثة، ومع ميلادك أنت، يا ولدي، خلخلها الفلاحون، الذين ترعى في أكبادهم المهترئة وحوش كاسرة لا أحد يرى أنيابها، فأسقطوها فوق تعرجات الشوارع القديمة، وأقاموا مكانها غابات الأسمنت المتجهمة، التي يتعانق فيها الصهد والصقيع، وتكاد تحجب عن أرواحنا شمس العصر الأليفة.

في هذه الترعة التي تكاد القمامة تسويها بالشارع الذي يعتليها، كانت ترقص دوامات الماء، ونسبح فيها إلى جانب الإوز والبط، وتمرق صغار الضفادع بين أرجلنا وأيدينا. تهرع وتلتف حول أنفسها، ثم تتقارب أجسادها الدقيقة لتصنع كتلة فاحمة السواد، مثل لحيتك هذه.

قبل أن نقطع الطريق نحو عتبات البيوت المتراصة، بجوار تلك الحديقة الشائخة، تعالَ لنبدأ من أول القرية. من نقطة انطلاق حكايتي

التي سردتها عليك في أمسيات طويلة بعد أن طالك الوعي، لكنك لم تسمعها مني أبدًا. ربما لو حكيتها لك وأنت راقد في حجر أمك، تملأ عينيك منها وهي تحاول أن تعلمك الكلام، لتغيرت أشياء كثيرة، وبقيت معي هنا، تدب أقدامنا سويًّا في الشوارع العتيقة، ولم تطارد الرصاص من جبال «أفغانستان» إلى صحراء «ليبيا»، وليس في رأسك سوى وهم الكتب الصفراء، وليس في مخيلتك سوى صورة شيخك وأميرك الذي تمتلئ يداه بالقنابل والدم.

أريد منك ألا تتعجل حتى ترى بعينيك وتسمع مني، وأنا أحكي لك عن كل عتبة من العتبات الإحدى والعشرين التي نقصدها. وحين أطلب منك في مكان ما أن تغمض عينيك لترى المعالم القديمة المحفورة في رأسي أنا، فعليك أن تفعل هذا على الفور، حتى لا يفوتك شيء من زمن أبيك الذي ولّى. إنه سلفي أنا القريب، وهو غير سلفك، وكل منا له سلف، لكن بعضنا يقف عند أول مشهد تحمله الذاكرة الغضة، وبعضنا يجر أيامنا ليصلها بحكايات القرون الغابرة، أو يفتح بابًا وسيعًا لمن صارت عظامهم ترابًا ناعمًا ليأتوا فرادى وجماعات، ويقبضوا بأيديهم الخشنة على رؤوسنا الحائرة، وقلوبنا المرتجفة.

تمهل فالسؤال الذي طرحته عليَّ وأنا أصرخ في وجهك غضبًا من سيرك الأعمى وراء رجل جاهل يحفظ بعض الكتب المحتشدة

بكلمات مهجورة، ويسكبها في أذنيك، لم يكن من السهل أن أجيب عنه هكذا، شفاهة، في كلمات أنطقها وستذوب في المساحة الفاصلة بين خوفي عليك، وغضبك مني.

أنت سألتني: لماذا أنا هكذا؟

وأنا أجبتك بسؤال: كيف أصبحت أنت هكذا في غفلة مني؟

سؤالان كان من الممكن أن نسكت عن الإجابة عنهما، وينصرف كل منا إلى سبيله. أنت إلى عماك وأنا إلى طموحي، وقد لا نلتقي أبدًا.

لا أدعي أنني أبعد منك بصرًا، لكن أدعوك الآن إلى أن تعيش ما عشته؛ لتعرف كيف أصبحت أنا هكذا؟ وما الذي ينقصك كي لا تصير كما أنت، فم يلهج بالتسابيح وقلب مظلم، كلون حذائك، الذي قُدِّر له أن يدوس أرضا غريبة.

لا يحزنك قولي، فتلك هي الحقيقة، على الأقل بالنسبة لي، إلى أن أثبت لك صدق ما أدعي، والأيام بيننا.

تعالَ في صمت مؤقت، وحين تشعر بالرغبة في طرح الأسئلة فلا تتردد، فحياتنا في النهاية قد تكون مجموعة من التفاصيل الفارغة، وقد تكتشف بعد أن تمر بالطرق التي تغبرت فيها قدماي في الزمن القديم أن مثل هذه التفاصيل هي التي صنعتني في كل الأحوال،

صنعت رأسي الذي كان يعجبك ولم يعد كذلك، وصنعت مشاعري التي كنت تسبح فيها لاهيًا منعمًا، ثم لفظتها وخرجت إلى القحط، دون أن تشعر بأي ندم.

هل أبدأ منذ أول جدار في هذه القرية؟ لا تريد أن تجيب. لا بأس، سأتحمل صمتك حتى النهاية، فكم من وقت ضيعته بعيدًا عنك حتى صرت هكذا؟ ولم أدرك ما حجم خطيئتي وفجيعتي إلا حين صرخت في وجهي: أنت كافر. ووصمت أمك بأنها كافرة. تتذكر أنني انتفضت من مكاني هلعًا، وسحبتك من يدك حتى هنا، لنبدأ الرحلة. لم تأتِ معي إلا حين تحديتك أنك ستعود إنسانًا جديدًا، وها أنا أبدأ معك أول خطوة في هذا التحدي. فهل أنت معي؟ أم أنا معك؟ سيان، لكن ما أدركه جيدًا أنني سأخاطبك من الآن فصاعدًا مثلما كان أبي يخاطبني. لعلي أستعيدك وأحافظ عليك، كما حافظ أبي عليَّ طيلة حياته، مع أنه كان رجلًا بسيطًا، يفك الخط بصعوبة.

هات يدك، يا ولدي، وارفع عينيك قليلًا عن مستوى أقدامنا، ثم أغمضهما، وتخيل ما أريد أن أصفه لك، وهو شيء لم يخطر ببالك من قبل، والدنيا مليئة بالغرائب.

في مستوى بصرك كان يوجد صهريج صغير للمياه، هو فرع من صهريج ضخم كنا نسميه ونحن صغار «البلدية الكبيرة»، كان به موتور يسحب الماء من جوف الأرض، ويرسله إلى حنفيتين

فرعيتين في القرية فيملأ الناس قدورهم وبلاليصهم وأزيرتهم، قبل أن يتطوع بعضهم ويشتري طلمبات رفع تقف على رأس وصلات طويلة من المواسير تنتهي في العمق البعيد، وتضخ الماء في أوانيهم، دفقات باردة.

الصهريج الصغير كان مقصودًا من بنائه أن يتجمع فيه ماء احتياطي حتى إن تعطل موتور السحب بالصهريج الكبير يجد الناس ما يشربونه إلى أن يتم إصلاحه. لكن انقطعت عنه المياه تمامًا، وجف ريقه بمرور الزمن، وأهملته الحكومة، وربما نسيته، فاتخذته سيدة غريبة بيتًا لها.

لم أعرف كثيرًا عن ماضيها، لكن جدتي لأمي كانت تقول إنها تزوجت ولما انجذبت طلقها زوجها وتركها تهيم على وجهها، حتى استقر بها المقام في قريتنا.

كان اسمها «زينب»، وناداها أهل القرية جميعا بالشيخة «زينب»، وتحدثوا عن كراماتها، وقالوا: حين تموت سنبني لها ضريحًا.

رأيتها كثيرًا في طفولتي، وشاهدتها جالسة إلى جوار جدتي وهي تسألها في كل شيء، وتنتظر منها الإجابة في لهفة، وفي نهاية الجلسة تعطيها ما تريده دومًا، وهو قبضة من الشاي، تجمعها في راحة يدها، ثم تسفها مرة واحدة، وتمضغها على مهل. كانت هذه هي طريقتها مع الشاي، بينما الكل يحتسيه ويرتشفه ساخنًا مريرًا ذائبًا في مياه تغلي بينما البخار يتصاعد نحو الأنف والعينين والجبين.

وفي يوم، يا ولدي، طلبت هي من جدتي أن تقول لها شيئًا عني، كانت تلح، لا أعرف لماذا؟وكنت أجلس بينهما تائهًا في الأخاديد المتعرجة والكثيفة التي تملأ وجه الشيخة «زينب»، وأتابع شفتيها وهما تتمتمان بحروف غير مسموعة، وكانت أمي إلى جوارنا. وضعت الشيخة يدها على رأسي، وتاهت قليلًا، ثم نظرت إلى جدتي وقالت:

- سيعلو نجمه.

فتهللت أسارير جدتي، وغمزتها بعشرة قروش، لكنها ردتها في غضب، وقالت لها:

- أنا لا أحب الفلوس.

فمدت الجدة يدها إلى علبة الشاي، وقبضت على تلقيمة كبيرة ومدتها إليها، فأقبلت عليها، ودستها في فمها، وراحت تلوكها في تلذذ.

ثم ضحكت عن أسنان مثرمة وقالت:

- اصبري حتى أكمل كلامي.

- هو فيه كلام أحلى مما سمعته؟

- فيه كلام أصعب.

- خوفتيني يا شيخة.

- هذا قدر ومكتوب.

وساد صمت، سقطت فيه دمعتان من عيني الشيخة، فمدت طرف جلبابها ومسحتهما، وقالت:

- يولد الميت من الحي.

- بمعنى؟

- سيكون له ابن يعصيه، ويجعل أيامه نكدًا في نكد. ينجرح النجم العالي ويسيل دم وتسقط دموع زي الجمر، وتنفتح أرض كلها رمال وصخر، تصفر فيها الريح، وينعق بوم كثير، وتتساقط الأزهار اليانعة أمام النحل الجائع.

كانت تقصدك أنت، يا ولدي، وكنت أنا طفلًا يوم ألقت هذا الهم الثقيل على رأس جدتي، بعد أن جعلتها تكاد تطير وتمسك النجوم بيديها وترى أي نجم فيها يخص حفيدها المحبوب. وأعادت الجدة هذه النبوءة مرارًا عليَّ وأنا كبير، وسنطلب من أمي، التي هي ابنتها، أن تحكيها لك حين نلتقيها في نهاية رحلتنا هذه. ستحكي ونسمع سويًّا كل شيء عن الدماء التي سالت، والدموع التي سحت، والجمر الذي يكوي أضلعي.

عرفت كيف أعيش لوعة غيابك عني، وأنا أتابع الأخبار التي تأتي من الكهوف البعيدة، وأتساءل: كيف يكون ابني أنا من بين هؤلاء الذين تطلبهم القوة العاتية في العالم بأسره، ويقول عنهم أغلبية الناس على سطح الأرض إنهم إرهابيون.

هذه الكلمة التي لم تعرفها جدتي، ولا جدتك، ولا الشيخة «زينب». لكن الثالثة حامت حولها دون أن تنطق بها، وعاشت الأولى تردد هذه التهاويم البعيدة حتى هذه اللحظة.

تدور «زينب» في البيوت، تجالس النساء، يسألنها عما سمعنه من جدتك، وتتمتم بكلمات جديدة، تتناقلها الألسن بعد أن تضيف إليها. صرت أنت حديث المصاطب وأمام عتبات البيوت في الليالي القمرية.

كانوا يتحدثون عن أمر في رحم الغيب، عن إنسان سيولد في زمن لاحق، ربما بعدما يودع أغلبهم الدنيا، لكنهم تخيلوه، ثم ألقوه على جسدي وأنا أدب أمامهم في شوارع التراب. وطالني الوعي على هذه الحالة، فأدركت منذ سنوات بعيدة أنني أنت، وأنك أنا.

بعضهن، ممن يأخذن كلام الشيخة على أنه قول قاطع لا راد له، كن يمصمصن شفاههن كلما مررت من أمامهن، وأنا ذاهب إلى مدرستي في البكور، أو إلى أبي في الحقل بعد الظهيرة.

وسألت جدتي الشيخ «إسماعيل» إمام المسجد، فضحك وقال لها:

- لا يعلم الغيب إلا الله.

لكنها كانت مستسلمة لكلام الشيخة، وتقول في نفسها:

- كثير مما قالته لنا رأيناه بأعيننا، وربنا يعطي أسراره لمن يشاء من عباده.

كانت الشيخة «زينب» تعود منهكة بعد العشاء، تتسلل إلى الزراعات لتقضي حاجتها، ثم تعود وتصعد السلم الحديدي حتى تصل إلى فوهة الصهريج، تدس رأسها في هدوء، وتسحب جسدها لتجد نفسها داخله، مدفونة في ظلمة شاملة. وكنت أنا أندس تحت غطاء ثقيل في الغرفة المظلمة التي دسست فيها خطابك، محملقًا في السقف؛ لأستعيد حكاية ابني الذي سيولد بعد سنين، ويعصي أمري، ويهجرني مليًا.

لم تكن الشيخة «زينب» لديها لمبة جاز مثل تلك التي كانت معلقة على جدران البيوت. وكان الناس يقولون إن جوف الصهريج ينيره شعاع يأتي من جنباته ولا يعرف أحد كيف لا ينطفئ برحيل الشمس. وشكك بعضهم وقالوا إنه إنعكاس ضوء القمر على حديد السلم العالي. لكنهم رأوا النور في ليالٍ غاب فيها القمر، وملأت السحب الداكنة بطن السماء.

وكان هناك كلب أبيض يهرع من الزراعات فور وصولها، وينام تحت الدرجة الأولى من السلم، باسطًا ذراعيه، وراميًا رأسه على التراب، وعيناه مفتوحتان دومًا. كانت هي تشعر بوصوله، فتطل من فوهة الصهريج، وترمي له كِسر الخبز التي حملتها معها من البيوت.

سارت حياتها على منوال واحد، وكبرت أنا حتى دخلت جامعة القاهرة، وذات يوم كنت عائدًا إلى القرية في إجازة نصف العام.

كانت الأمطار تتساقط بغزارة، ورأيتها قادمة تمد قدميها على مهل فيغطيها الوحل الزلق، وقد ابتلّت طرحتها. هممت نحوها، وأمسكتها من ذراعها اليمنى، وسرت بها في حذر حتى وصلت إلى الصهريج. ووجدتها تقول لي:

- اطلع معي حتى يكف المطر عن الهطول.

مثلك يا ولدي كان سيسألني فزعًا:

- كيف تختلي بامرأة من دون محرم؟

وها أنا أضحك وأقول لذهنك الصغير وصدرك الضيق:

- كانت في مقام جدتي.

وقد لا تعجبك إجابتي فأنت من قوم تشغلهم هذه المسائل أكثر من غيرها، لكن ما سيعجبك طبعًا، وقد يدهشك، أنها يومها رسمت لي ملامحك. جسدك الفارع، وشعرك المجعد فاحم السواد، وقدماك المفرطحتان اللتان نتعب حتى نجد حذاء على مقاسهما، وعيناك الشاردتان على الدوام.

وصفتك يومها كأنها تراك الآن، وحكت لي عن المتاعب التي سألقاها معك وأنت تروغ مني. ما إن أجدك حتى تضيع، ليبدأ عذابي من جديد.

ما الذي يجعل امرأة ريفية بسيطة تعرف أشياء عن ولد سيأتي، ويسافر إلى بلاد الجبال الوعرة والعمائم والخشخاش والرصاص

المصبوب، وأنه سيحمل بندقية تلو أخرى، ويقتل من أعدائه خمسة وعشرين، يصطادهم من بين عيونهم، فيخرون بلا حراك، وتسقي دماؤهم حصى الصحراء، ثم يطارد البقية، والشمس تقف منكسرة على سن الجبل، وبعدها تسقط خلفه، ويحل ظلام دامس.

وضحكنا حتى همهمت بهذا في يوم آخر وهي جالسة في دارنا، قالت كل شيء بصوت خفيض وكلمات متقطعة وكأنها تناجي نفسها، وضاع همسها في قهقهاتنا، وجدتك تقول:

- الثأر وراءنا في كل مكان.

فابتسمت الشيخة:

- ثأر، لكنه كبير، وقد لا يكون ثأرًا أصلًا.

ووصفت جبالًا وكهوفًا ووجوهًا لم نرها، فصرخت فيها الجدة:

- هذا المكان بعيد.

- في آخر الأرض.

وكانت آخر الأرض التي رأتها جدتك هي بندر «المنيا»، وآخر الأرض التي سمعت عنها وتمنت رؤيتها هي «القاهرة»، وآخر أرض ارتجف قلبها لذكرها هي «سيناء» أيام الحروب و«فلسطين» في نكبتها الطويلة. ولهذا اعتقدت جدتك يومها أنك ستحمل

السلاح في «سيناء» حين تندلع حربٌ جديدة، وانقبض قلبها، وذهنها يستدعي كل الذين استشهدوا قبل ذلك، ثم نظرت إليّ أنا وربتت كتفي وقالت:

- ابنك سيكون بطلًا.

وعشت يا ولدي على هذا الأمل سنين طويلة، ولما خطفني وجه أمك أيام الجامعة وسعيت إلى اصطياد قلبها، سألتها بعد أيام من تعارفنا:

- هل تمنحينني الفرصة لإنجاب البطل المنتظر؟

وشرحت لها نبوءة الشيخة «زينب» فضحكت يومها، وفي يوم عرسنا حملت بك، فضحكت أنا وقلت لها:

- شاء الله أن يعجل بميلاد بطلنا.

وحين ولدت نظرنا طويلًا في وجهك وأنت قطعة لحم حمراء يكسوها زبد أبيض وصراخك يملأ غرفة الولادة التي تفوح فيها رائحة المعقمات، وكل منا يستدعي في رأسه الحكايات التي تبادلناها سويًا عنك في سنتين ونصف فصلتا بين التعارف والخطبة وبين الزواج.

كنت أقول لزملائي المحامين بكل ثقة:

- هناك حرب قادمة.

فينظر بعضهم إلى بعض ويقولون:

- السادات بدأ مسيرة السلام.

لكنك لم تذهب إلى «سيناء» ولا حتى إلى «فلسطين» كما فسرنا النبوءة القديمة، إنما ذهبت إلى «أفغانستان». إنه البلد الذي لم يأتِ على لسان الشيخة «زينب» لكنها وصفته، وبقينا سنين نتخيله، تتوه خواطرنا في وهاد ونجاد ولا نعرف أين نحن؟

يوم ولدت أنت رحلت هي، كانت مصادفة غريبة، أو هكذا كان القدر، لم نجدها أمامنا لتراك ونسألها:

- أهذا الذي تقصدينه يا شيختنا؟

تركتك تصرخ إلى جانب أمك على فرشتها، وجريت إلى محطة القطار. نظرت إليّ معاتبة، لكنني قلت لها:

- جاءني نبأ موت الشيخة «زينب»، ولا بد أن أودعها.

انتظروني حتى أشيعها معهم. مشيت في جنازتها ألملم الصمت الذي خيم على الرؤوس، ثم فجأة انطلق أحدهم: «لا إله إلا الله» فرد عليه الجميع: «محمد رسول الله» رددوها بصوت رخيم مفعم بالشجن فسالت الدموع. كان من بيننا الذين ينتظرون كراماتها. أن يطير النعش ويرفعنا إلى أعلى، أو يجري ونهرول خلفه، لكن شيئا من هذا لم يحدث.

فقط مات الكلب يوم أن ماتت الشيخة. مشى وراء جنازتها صامتا، لم ينبح أبدًا، حتى حين استفزته كلاب القرى المجاورة، التي مر عليها النعش في تمهل مستقرًّا فوق أكتاف تتبادله، بينما يرفرف طرف من الغطاء الذي يكسوه في نسمات طرية يهديها النهر السابح على مرمى البصر إلى وجوه المشيعين.

وقال بعضهم:

- موت كلبها يوم موتها إحدى كراماتها.

لكن آخرين ردوا عليهم:

- هذا من قبيل الوفاء.

لكن كرامات الشيخة توالت بمرور الأيام، فكل ما تنبأت به راح يجري، ووقع أبوك، يا ولدي، في قلب كراماتها ونبوءاتها، فها أنت قد كبرت، نبت لك شارب ولحية، فحلقت الأول وتركت الثانية. كنت تدوس عليه بالموسى حتى يكاد الجلد يتقشر، بينما أعفيت الثانية من كل شيء إلا مشط أبيض كبير تضعه في جيب جلبابك الأبيض أيضًا، تغمسه دومًا بين خيوط الشعر فاحم السواد، فينسدل أكثر على صدرك. وكنت كلما سألتك تقول:

- هذه سُنة الرسول.

وضحكت ذات يوم وقلت لك:

- كان الرسول يترك شعر رأسه مسترسلًا على كتفيه وكان يضفره، فافعل مثله.

كنت تلوذ بالصمت وتقول:

- لا أستطيع أن أفعل هذا.

- لماذا؟

هكذا سألتك بصوت لم يخلُ من غيظ، وأجبتني بصوت خفيض:

- التقاليد.

قهقهت يومها وقلت لك:

- كانت بعض تقاليدهم فماتوا عليها فصارت لديكم سُنة.

وامتلأ وجهك بالغيظ، وقبل أن ترد عليَّ بما يظهر غضبك واصلت أنا، وسألتك:

- ترى لو كان في «جزيرة العرب» قديمًا حلاقون مهرة ألم يكن من الممكن أن يتغير كل شيء.

وضُربت عليك ذلة ومسكنة واحتار أمرك، لكنك جريت إلى غرفتك وأحضرت كتبا ذات أغلفة مقوَّاة، خضراء وحمراء، وعناوينها مكتوبة بماء الذهب، وقلت لي:

- اقرأ، بدلًا من الولع بسيرة الشيخة «زينب» الجاهلة.

فقلت لك:

- سامحك الله، تركت الجوهر وأمسكت في المظاهر الفارغة.

ولما تركتني ذات يوم وهربت إلى «أفغانستان»، قلت لأمك والألم يأكل روحي:

- هكذا قالت الشيخة في الزمان الأول.

فابتل وجهها بدموع غزيرة وقالت:

- يعطي سره لأضعف خلقه.

ولما استبد بنا يأس قاتم، برق أمل خاطف ذات ليلة من قيعان الذاكرة، فانتفضت من مكاني راقصًا، فظنت أمك أنني قد مسني جنون، أو أنني أهتز من فرط الألم، لكنني استعدت كل شيء، كما أمكن لذاكرتي أن تحمله، وقلت لها:

- جاء الفرج.

فامتلأ وجهها دهشة، وتمتمت في سرها بكلمات لم تصل إلى مسامعي، ثم تطلعت لتسمع ما أريد أن أبلغها به.

جلست على الأريكة، ورميت رأسي إلى الوراء، وأنا ألهث، فمي مفتوح عن آخره من الهواء الخارج من صدري، ومن الأمل الذي استيقظ وغمر وجداني.

وقتها، يا ولدي، رأيت الشيخة «زينب» تجلس قبالة أمك. لم تكن هي، بل كان طيفها. لم يكن طيفها بل هي. لا أدري، حتى هذه اللحظة التي أحدثك فيها، إن كان طيفًا أم جسدًا؟ لكن أمك لم تشعر بوجودها. هكذا أدركت لأنها لم تنظر إلى جانبها لترى ما أرى، ولم تسمع ما قالته لي الشيخة، وهو ما كانت جدتك قد سمعته في الأيام البعيدة، ورددته كثيرًا أمامي وأنا صغير وهي تضحك، كما استقر في رأسها وعبر عنه لسانها، ولا أدري كيف نسيت هذا وأنا أرسف في أغلال الدنيا وهمومها، كل هذه السنين.

فجأة جاء ما قالته الشيخة الطيبة كماء بارد غمر نار صدري الموقدة، وجعل صورة البيوت القديمة المتداعية تملأ عينيَّ، ووجوه الراحلين ومَن يكابدون أوجاع الشيخوخة المعتقة تترى أمامي بلا توقف، ثم تبتسم، وأجد أيادي كثيرة تمتد إليَّ. ثماني عشرة يدًا معروقة ترفرف، ثم تزحف في بطء نحو يدي، وواحد وعشرين فمًا تقول في صوت واحد:

- تعالَ.

نطقوها بصوت مبحوح كثغاء الماعز، واحد وعشرون صوتًا، من كل عتبة صوت، تجمعوا وامتزجوا في صوت واحد، يشبه صوت الشيخة «زينب» تماما. أطلقوا فعل أمر، لم أستنكفه، بل تأثرت به إلى درجة أن وجيب قلبي قد ارتفع، وتفصد العرق من مسام جلد وجهي، وتقاطر فوق قميصي.

نهضت من مكاني، ومددت يدي إلى آخر ما أمكنها، وأمك، يا ولدي، مذهولة مما ترى، وحائرة حيال رجلها الذي كان راسخًا وقورًا منذ قليل، يرتع في صمته، فإذا هو يهذي. حسبت هي وقتها أنني تائه، أتخبط في أوهام وهلاوس وضلالات لا أستطيع فكاكًا منها، وكادت تقوم لتغلق باب الغرفة، حتى لا أنفلت في الشوارع وأنا أكلم نفسي، فينفلت هذياني، ليعبر باب الشقة الموارب قليلا، وينسكب على سلالم البيت، ثم يتوزع تحت أحذية العابرين، فيدوسونه ويسخرون مني، وقد يلسعني بعضهم بكلمات قاسية.

لكنني، يا ولدي، تركت لها الغرفة والشقة وسلالم البيت وأحذية العابرين الخشنة، وجئت هنا لأبوح لك بكل شيء، هنا بين الذين يرقد الزمن في عيونهم، وهم يتمهلون في كل شيء، يمكن لثرثرتي أن تتعثر في التراب المبلول، فتنبت حكايات عني وعنك. هنا لن يقول أحد إنني لا أراك وأنا أراك، وإنني لا أحدثك وأنا أحدثك، فما تراه عيني يرونه، وما تسمعه أذني يسمعونه، حتى لو كان ما أمام البصر سرابًا، وعند الأذن صمتًا راتقًا. كل البيوت مفتوحة أمامي وأمامك، فلتقف عند العتبات التي تفتح حضنها لكل من يعبرها، ويدلف إلى الداخل غير عابئ بأنينها من خشونة قدميه التي قددتها شمس الحقول، وفرطحها السعي الدءوب وراء الرزق.

هنا فوق شوارع من تراب نسير سويًا، يدي في يدك، هاتها، هي هنا تملأ كفي، لكنني لا أشعر بملمسها. هل تركت جسدك هناك في صحاري «ليبيا» الشاسعة، لكن ما الذي أقبض عليه الآن؟ هل يمكن أن نمسك الروح بيدنا، تدوس فيها أصابعنا؟ ربما هي لأنني أمسكك دون أن أشعر بملمس جسمك الذي أحفظه جيدًا، منذ أن كنت أجلس إلى جانب أمك أساعدها في استحمامك، حتى آخر مرة أحدثك في حضني وجفلت مني قبل أن تغادرني كل هذه السنين.

لا أدري، يا ولدي، فأنا أسير مترنحًا من فرط الأسى، لا أمسك شيئًا سوى كلام الشيخة «زينب» الذي رمته بصوت غير صوتها، وكأن حنجرتها قد تبدلت في ثانية واحدة، ثم تركت جدتي تتقلب في وحل الحروف. وقبل أن تطير روح الجدة إلى الأفق الأعلى جاءت بأمي، وكررت على أذنيها كلام الشيخة كما نطقته، وكنت وقتها قد كبرت، فأصخت السمع إليها مندهشًا؛ إذ صار صوتها يشبه صوت الشيخة تمامًا، وأخرجت الحروف من فمها على الطريقة نفسها التي خرجت في زمن مضى.

ترى مَن كان يتكلم وقتها يا ولدي؟ فأنا لا أعرف هل حلَّت روح الشيخة في هذه اللحظة في لسان جدتك؟ أم أن الأصوات القديمة التي سبق أن امتزجت وأعطت صوتها للشيخة قد تجمعت من جديد لتعطي الصوت نفسه إلى جدتك؟

سمعتها أمي، التي هي جدتك، وتعجبت مما آل إليه صوت أمها، فاقتربت مني وقالت:

- كأننا نودع الشيخة «زينب».

فهززت رأسي صامتًا، وتركتها تمسح دموعها، وتكمل:

- كلتاهما تبشرك بأيام عصيبة.

مددت يدي وكفكفت دموع أمي، وأنا أقول لها:

- خليكِ مع الله.

كنت أواسي نفسي وأواسيها. بل أواسيها وأواسي نفسي، وظللت سنوات طويلة وأنا أرفل في عزوبيتي منتشيًا بشموخ الصبا والشباب، ولا يكدرني سوى تذكر كلام الشيخة «زينب» الذي أعادته جدتك، وحفظته أمي على قدر ما وسعها، وجمعت أنا منه ما قدرت عليه، بعد أن سمعته ذات ليلة في بيت «غندور» مخاوي الجن. لكنه كان يأتيني في المنام كابوسًا قاهرًا.

في هذه الليلة البعيدة تكلمت «الشيخة» بلسان غير لسانها، ولا أدري، يا ولدي، من كان يتكلم وقتها؟ هي أم قرينتها في عالم الجن؟ أم يا ترى ملاك طاهر حل بجسدها أو كان يرعاها؟ أم شيء نائم في رأسها واستيقظ فشطرها نصفين، وصارت اثنتين؟ أم كنت أنا أتخيل أو أتوهم في شرودي وحزني؟ أم كانت خاطرة اجتاحتني

كطوفان غادر؟ لا أدري، لكنني أعي كل ما قيل حتى هذه اللحظة عن العتبات الإحدى والعشرين. وما قيل، يا ولدي، قالته الشيخة، عتبة وراء أختها، ونحن ننصت حتى انتهت. لا أزال أعرف ما تفوهت به، ويمكنني أن أتلوه على مسامعك الآن بلا أدنى عناء، وها هو:

العتبة الأولى: أنا، وصهريج بيتي، الذي سيهدمه الطامعون، دار معلقة في وجه الريح لها عتبة غير العتبات، وهذه فقط التي أكشفها لك؛ لأنها جلية كشمس نهار الصيف، منها البداية، ولا رجوع إليها، وبعدها حيرة مقيمة.

العتبة الثانية: الرجل الذي لا صلى ولا صام، لكنه صمت وهام، إلى أن جاءه اليقين، فركع وجاع لتسمو روحه وتنخطف على بعد خطوات من السفر الأخير، بعد أن كان يجري من تحت قدميه ماء، ويمد بيده ماء إلى العابرين وهو يبتسم تائهًا.

العتبة الثالثة: امرأة كالنسيم، اسم على مسمى، صبوحة عفيفة، تقترن في غفلة من الزمن بالفاجر الجبار، وتعاند الألم، وترعى الظل، وتتركه ليرطب رؤوس العابرين في لفح الهجير.

العتبة الرابعة: راعي الغنم الذي يطوق الحكمة بذراعيه حتى لا يخطفها السفهاء، يعيش حتى ينحني ويدفن رأسه في قدميه، ويجحده مَن كان يطيعه، ويعطيه ظهره متجهمًا، لكنه يقابل هذا بابتسامة تقطر بمحبة دائمة؛ لتغسل أوجاع المشيب.

العتبة الخامسة: الصخرة العنيدة كبغل هرم، والمسنونة كإبر صدئة، تصير رملًا ناعمًا في لحظة خاطفة، تستريح للمسه الأقدام المجهدة من طول الترحال. والوجيه المغرور يتواضع، ويلملم العبوس الذي أقام على وجهه سنين، ليفرش البسمات، ويتبدل شره المستطير خيرًا عميمًا.

العتبة السادسة: حاملة الأفراح والأتراح النائمة فوق سطور تعانق الأبيض الفارغ، تعبر سريعًا، في غفلة من الزمن، قنطرة هشة بين الصبا والكهولة، لتمضي حياتها قاسية فوق أرض بور، منتظرة العابر الذي خطف عذريتها في لحظة وهرب بعيدًا، ولم يرسل لها سوى جمرات من عظمه المتفحم راحت تتساقط، بلا رحمة، على وجهها الذي قددته الأيام العصيبة.

العتبة السابعة: الأسود الرائع المنبوذ، الذي يميط الأذى من طريق أناس يوجعونه بهجرهم، تتحقق له الهيبة بفضل ورعه وأخلاقه، ومن أجل هذا يرمي كثيرون أحجارًا في بحيرة آسنة، فتهتز، ويتبعثر العفن تباعًا، ليأكله صهد الشمس، وموجات الريح، ويتدفق الماء النمير.

العتبة الثامنة: الحائر بين نصف اسمه، وكل رسمه، يرق كالنسيم ثم يهيج كالعاصفة، وينقل قدميه بين أرقام مبعثرة، ويجلس ليلملمها في حضنه متوهما أنه يمتلك كل شيء، لكن يولد من صلبه من يعلمه أن العلم لا يجافي الجمال.

العتبة التاسعة: جنوبي صغير، تحط الصحراء على رأسه، وتناثر فوقها أحراش عفنة، تتساقط يابسة بمرور الأيام على كتفين عريضتين، ترتفعان وتملآن جلبابًا فضفاضًا، يهفهف بين وردة وعود ريحان، بعد أن تنغرس القدمان في الأرض الجديدة، وتنبت الجذور المقطوعة.

العتبة العاشرة: المسكين الذي يتغرب سابحًا في بحار الرمل والحصى، ويدع أزهاره جائعة، تجف وهي ملقاة إلى جانب جدران سوداء محنية، والبطون التي تئن فارغة لا تجد سوى العبد الصالح ليملأها، فينفتح طريق وسيع لمَا يجود به الخيرون، فيذهب الجوع، وتكبر الأجسام، وتملأ عيون مَن كانوا لا يرونها أبدًا.

العتبة الحادية عشرة: فاتنة طيبة، ذات قلب موصول بالسماء، وحظ مطمور في سابع أرض. تحبس عشقها الغض، لكنه لا ينام، ولا يشيخ، فتهدهده وتروض أحلامها الجامحة، لتمضي حياتها رتيبة. حين تشرق يسيل لعاب كثيرين فتجبرهم على أن يلملموا رذاذ رغباتهم المتوحشة ويتحسروا، غير عارفين بأن وجدانها لا يحمل إلا صورة شخص واحد، ولا يردد إلا صوتًا واحدًا، يقول بلا انقطاع: الله محبة.

العتبة الثانية عشرة: جسد يفور، وعقل يغور، لصبي نزق، يعطي ظهره لعجوز ورث عنه عينيه الشرهتين، وأنانيته المفرطة، وبطنه الذي لا يشبع. في يوم يمضي إلى رحلتين، واحدة قصيرة الزمن والمسافة إلى رغيف ناشف، وثانية إلى لقمة طرية، مغموسة في الدم واللهيب، تأخذه هذه إلى النهاية المحتومة، ويفتح وراءه نوافذ الأسئلة الصعبة.

العتبة الثالثة عشرة: العازف الذي تتمدد على أوتار قلبه ربابة أكبر منه عمرًا، يوقعه المدعي الكاذب في نار الحيرة، فتأخذه أنت إلى رحلة قصيرة، تتساقط فيها الحروف فوق رأسيكما، ويعود منها منشرح الصدر، فتصدح موسيقى، تخرج من فوهات داره، وتنساب في الشوارع والحارات لتروي نفوسًا عطشى.

العتبة الرابعة عشرة: الرجل الذي يخرج الدخان من أنفه وأصابعه ويصادق القادمين من عالم الغيب، ستقصده أنت ذات ليلة لتنزع الشوك من صدرك، والحنظل الراقد في فمك، لكنه سيهديك تحت سقف العتمة حزمة من الشوك، وكومة من الحنظل، وستسمع عنده صوتي، الذي أودعته في رحاب الدنيا، بعد أن فارقتها بزمن طويل، فتستعيد الإحدى والعشرين عتبة من جديد، لتمضي نحو حضور الغياب، وغياب الحضور.

العتبة الخامسة عشرة: تكبر شجرة التوت أمام باب الرجل الطيب، الذي يحلم بزمن يرعى فيه الذئب مع الغنم، والعجل مع الشبل، لكن أحلامه النبيلة تذهب سدى، وكل ما يقوله للناس يشعرون كثيرًا أنه بلا جدوى، لكنه يربي الأمل دومًا، فلا يموت أبدًا، بل يجلس تحت الأغصان الهائمة في نسيم عليل ملفوفًا ببقايا الشمس العائدة إلى بيتها، يوزع التوت بيمناه، والرجاء بيسراه.

العتبة السادسة عشرة: حين يدخلك العيش تقصد صانعة البهجة محمولًا فوق رغبة جامحة وتلال من الظنون وأنت تمني نفسك كثيرًا بأنك ستقضي منها وطرًا. لكن الجذابة الفاتنة تصدك وتردك، وترى منها وجها غير الذي رأيته من قبل أو كنت تنتظره، فتعود كاسف البال، لكنك تربح عصمة من الرذيلة، وتجني حكمة ستعيش معك إلى أن تلقى الله.

العتبة السابعة عشرة: الرجل الذي يتصرف بلا حياء فيتساقط لحم وجهه بلا انقطاع، يقف أمام بيوت الله مادًّا يده ولسانه، ليهمس في آذان كثيرين فيسوقهم إلى المحرقة. تقصده أنت ذات ليلة تحت جنح الظلام، وفي رأسك اختلاط بين سؤال عن الغائب الحبيب وآخر، يشغل الناس ولا يعنيك، عن الكنز المخبوء، لكن أسئلتك لا تذهب، بل يولد غيرها، وتنتهي الطرق من تحت قدميك في فراغ.

العتبة الثامنة عشرة: الحارس الصلد يخور ذات ليلة؛ لأن أصحاب اللحى خرجوا عليه في الليل البهيم، ليقولوا لمن يطاردونهم بلا هوادة: نحن هنا، وخيروه دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة بين أن يموت أو أن يموت، فاختار إحدى الميتتين، وعاش بقية حياته كسيرًا، لا صناعة له إلا اجترار هذه اللحظة القاسية.

العتبة التاسعة عشرة: رفيق الطفولة الكذوب، الذي يفارقك في الصبا بعد أن يبتلعه أصحاب اللحى الخفيفة، يروغ منك حين تلجأ إليه ملهوفًا لتبل ريقك بأي خبر عن الحبيب الغائب، تقف أمام بابه، بينما يتطاير حولك غبار السنين وأزهار كالقطن ترقص في شبه الدائرة المألوفة لديك، فتملأ عينيك حكايات مفرحة من أيامك الغضة، فلا تلبث أن تهشها، وتعود لتسقط في بئر أحزانك.

العتبة العشرون: الطيب الذي يدفن وجهه في الذهب الأحمر المعلق عند طرف الأرض الغربي سيعطيك المفتاح من بين سطور الكتاب المُكَرم، وعليك أن تجد الباب، وأنت تائه بين الصحو والمحو.

العتبة الحادية والعشرون: هنا في مكاني، ستكون السيدة التي أمامي عجوزًا تتوكأ على أيامها الطويلة التي تمر في هدوء، وستكون

أنت قد غزا الشيب فوديك ومفرقك. هنا قد تجد كل شيء بين يديك، أو في رأسك، صلبًا وهواءً، امتلاءً وخواءً، فتريث ولا تظلمني، فليس كل الغائبين لا نراهم، وليس كل الحاضرين نراهم، والحاضر في غيابه أفضل من الغائب في حضوره، فلتسكن أوجاعك باسم الله، ولتهدأ نفسك بفضله، ولتعرف أن لكل بداية نهاية.

* * *

حين انتهت الشيخة «زينب» من ذكر كل ما أتى على لسانها عن العتبات الإحدى والعشرين، وقفت أمي، وتكدر وجهها، وصرخت متسائلة:

- إحدى وعشرون عتبة ولا نهاية للألم؟

وهزت الشيخة رأسها، وقالت:

- لا تتعجلي، وما جاء الآن ليس كل ما يجيء، والدعاء الموقن صاحبه بالإجابة قد يغير القدر، والأيام دوارة، ولا يعطي الله من علم الغيب لأي عبد إلا القليل، وتفاءلي بالخير تجديه.

كانت لا تزال تتحدث بصوت غير صوتها، وربما بلسان غير لسانها، وكنت أنا تائهًا وخائفًا، ألوذ بصمت تام، وكانت أمي مثلي، لكن وجهها تضرج بدم أزرق، واتسع بياض عينيها.

وسألت أمي:

- وهل بتخطي العتبات ينفك النحس، ويغور الشر، ويعود الضائع؟

تنحنحت الشيخة، وارتد إليها صوتها الذي نعرفه منذ سنين، وقامت من مكانها فرأيتها في هذه اللحظة وكأنها صهريج صغير، أصغر من ذلك الذي تقطنه. اقتربت منها وأنا أزحف على ركبتي، ثم وقفت حيالها، ومددت يدي وأمسكت كتفها اليسرى، وقلت على قدر ما وعيت:

- وهل سيكون ولدي الوحيد؟

فابتسمت الشيخة وردت في عجالة:

- مع التيس ستكون عنزة حلوة.

لم أفهم ما تعنيه، لكن أمي فهمت، فنظرت إليَّ وقالت:

- سيرزقك الله ببنت جميلة مع الولد.

ثم التفتت إلى الشيخة «زينب»، وأعادت عليها السؤال من جديد:

- إن تخطت العتبات يعود الغائب؟

وعندها بدأت الشيخة تنفض ما علق بجلبابها من غبار وقش، وهي تقول:

- ليس كل مَن ذهب قد غاب، وليس كل مَن عاد قد حضر.

لكن هذا الكلام الغامض لم يعجب أمي، فقالت لها في غيظ شديد:

- تفتحين علينا بابًا واسعًا تأتينا منه ريح مسمومة ستضنينا عمرًا كاملًا، ولا تريدين أن تغلقي ولو ضلفة واحدة، نجلس تحت ظلها نربي الأمل، وتصد عنا بعض هذا الهواء القاتل.

زامت الشيخة، وتمتمت بما لم أسمعه وقتها، وجلست في المكان الذي كانت تجلس فيه، والغبار والقش يزحفان على جلبابها، وصمتت أطول من المعتاد، ثم فجأة تغير صوتها مرة أخرى ونطقت:

- تتلاقى الأرواح وتتناجى وإن كانت بين الأجساد بحار من الرمل، ورمال من الماء، وجبال تحجب الشمس.

وعندها امتلأ وجه أمي بالدهشة، وفاض عليَّ فاندهشت مثلها، لكنها سألت الشيخة وأنا صامت:

- أتقصدين أنه سيغيب، ولن يعود، ولن يكون أمام ابني من سبيل سوى مناجاة روح حفيدي؟

وعاد الصوت:

- لا تقوّليني ما لم أقله، ولا علم لي إلا بما قلت.

وزفرت أمي:

- تعودين مرة أخرى إلى المراوغة يا شيخة؟

- أنا لا أراوغ يا أم الصبي، بل أمشي على قدر ما أمامي من طريق، لا أحدد أنا طوله أو قصره.

لم تفصح، يا ولدي، يومها عن أكثر من هذا، وهكذا فعلت في كل الأيام اللاحقة، حتى قبل وفاتها بساعات قليلة، حين سألتها أمي:

- هل هناك من جديد؟

فهزت رأسها نافية، وبعدها لم تنطق بحرف، لكنني سمعت، فيما بعد هذا بسنين طويلة، ما نطقت به الشيخة عن العتبات الإحدى والعشرين، ورحت أتملم كل شيء حتى أكملها، متمسكًا بالأمل الذي ربيته في قلبي كل هذه المسافة من عمري، وأنا أقول لنفسي كل صباح: حين تكتمل العتبات سأجدك.

حتى وأنا على البعد، كنت متواصلًا مع كل ما يجري في فريتنا هذه، أتساءل بلا توقف، وأمعن النظر في الإجابات بذهن متوقد، وبصيرة نافذة، وأضع الواقعة جنب أختها، حتى أصل إلى صاحب

أو صاحبة أي من هذه العتبات، فلما اكتملت أمامي أتيت إلى هنا لنستعيد كل شيء.

وحين سمع نسوة القرية عما قالته الشيخة في شأني، ذهبن إليها كي تقول لهن شيئًا عن مستقبل أولادهن، لكنها أبت، وقالت: لا أعرف إلا عن هذا الولد، ووضعت يدها على رأسي. وكان ما يطمئنني في معاركي التي خضتها في دأب وصبر، ضد التيار الديني، أن هذه المرأة الصالحة لم يؤذن لها بالحديث عن أحد غيري، من كل أطفال القرية.

وقضيت السنين، يا ولدي، أستعيد ما قالته الشيخة، وأمي معي. تحكي، وأمسك القلم، وأكتب رقم العتبة، واسم الشخص المقصود، في البداية كان الأمر غامضا، فكثير من الأحداث التي أوجزتها الشيخة «زينب» لم يكن قد وقع بعد، ولذا كان من الصعب أن نعرف من تقصد؟ لكن بمرور الأيام راح كل شيء يتكشف أمام أعيننا.

هل تعرف؟ إنني جئت بلوحة من ورق مقوى، ورسمت فوقها جدولًا، ليس فيه سوى خانتين، وكتبت على رأس الأولى كلمة «العتبات» وتحتها تندرج أرقام من واحد إلى واحد وعشرين. والثانية مكتوب على رأسها: «صاحب العتبة»، وكلما اكتملت

المعلومات وحددت ملامح واحد ممن قصدتهم الشيخة، كتبت اسمه، وانتهيت منه، وتابعت غيره، فلما امتلأت الخانات كلها، جلست على الأرض تحت اللوحة، ووضعت رأسي على كفي، وأغمضت عينيّ، وتدفقت الذكريات.

رأيت وجوه أصحاب العتبات على اللوحة، رجالًا ونساءً، وخلفهم بيوت أناخ عليها الدهر، ينام ظل جدرانها على رؤوسهم، ووجوههم تنضح بابتسامات معتقة، واستعدت أيامي التي تسربت مني بين أكتافهم، لأجد نفسي طفلًا صغيرًا، يدب في شوارع ترابية حميمة، وعيناه معلقتان برقاب المتعبين، الذين يهزون الأيام، فتتساقط عليهم حكايات ممتعة وموجعة.

ولأن الشيخة تركتني، يا ولدي، متقلبًا بين روحك وجسدك، كان لدي وقت كافٍ كي أفهم أنني سأسترجعك حين أرش على صدرك، بلا انقطاع، ماءً طهورًا من ينابيعي القديمة، التي غمروني فيها سنين، منذ أن حبوت، وتعلمت النطق، حتى فارقت هذه القرية الوديعة الغافية، سعيًا وراء رزقي في زحام المدينة.

جئت لأحكي لك وتسمعني، بجواري كنت أو بعيدًا عني، ألمسك أو أشعر بك فقط، المهم أنك ستسمع. ولن أتوقف عن

الكلام، وأنا أنقل قدميَّ في مسارب قديمة تصنعها بيوت استجدت، ترمم بعضها، أو أزيل لتقوم مكانه غابة من الأسمنت. سأحكي لك عن سلفي أنا، وهو غير سلفك أنت، ولن يمنعني خطابك، الذي ألقاه ساعي البريد في وجهي، فذرفت دموعي بمجرد أن رأيت حروف اسمك مطبوعة فوق المظروف ذي الأطراف الملونة، ورحت أتشممه، وأسحب شهيقًا لعل عرق أصابعك يسكن رئتيّ، لكن حين فتحته لم أجد سوى الفجيعة.

العتبة الثانية

الرجل الذي لا صلى ولا صام، لكنه صمت وهام، إلى أن جاءه اليقين، فركع وجاع لتسمو روحه وتنخطف على بعد خطوات من السفر الأخير، بعد أن كان يجري من تحت قدميه ماء، ويمد بياده ماء إلى العابرين وهو يبتسم تائهًا.

انظر يا ولدي، هذا أول جدار، وأول دار في قريتنا، يملكه رجل غريب اسمه سليم السويركي، جاء أبوه مهاجرا من الصحراء. هل هرب من ثأر أم فر من الجوع؟ لا أحد يعلم. لأنه حين وصل، قال له الناس: يا شيخ العرب. سار في الطريق نفسه الذي بدأه من جاءوا مع عمرو بن العاص فاتحين بلدنا. ضربوا خيامهم على أطراف الصحراء، وظلوا يرمقون الفلاحين من بعيد، ويأكلون من حصاد أياديهم دون أن يعتنوا بما يزرعون. ومرت السنون، حتى خلعوا جلابيبهم، وحاكوا سراويل لا تنغرس في الطين ولا يبللها ماء النيل الجاري، وأمسكوا الفئوس بأيد خجولة، ثم توالت ضرباتهم في الأرض، حتى صاروا فلاحين، يقدسون الأرض، ويفتخرون بشغلهم. بعضهم ذاب في متحف الأجناس البشري الرهيب الذي يقام على كل خريطة بلدنا، وبعضهم احتفظ بنسبه، يتباهى به في الأفراح أو ليالي السمر.

الرجل الغريب عاش وتزوج قريبة لنا، وأنجب اثنين من الذكور، أحدهما صاحب هذه الدار. أنا لم أرَ الأب، لكن وجه ابنه كان أول ما يطالعني حين أعود إلى القرية من غربتي. يهل بعمامة كبيرة وجسد عريض، ويبش في عيني ويقول:

– أهلا بحبيبي وابن حبيبي.

لكن ما علاقة هذا الرجل بما تريد أن تقول؟ إنه السؤال الذي يدور في رأسك يا ولدي، وتبغي الآن أن توجهه لي بهاتين الشفتين المزمومتين في ضجر، لكن كما قلت لك لا تتعجل، وامضِ معي حتى آخر عتبة.

لم ينجب سليم، صاحب الدار التي أمامنا، سوى بنت من زوجته، وهذا قليل في قريتنا، لكنه عاش معها صابرا. فكر في يوم أن يتزوج بأخرى، وكان يذهب إليها في قرية مجاورة راكبا حمارته البيضاء، ذات الأذن المقطوعة، ويضع أمامه المذياع الذي لا يملك أي أداة للترفيه غيره، ويتراقص على الأغنيات التي يسكبها في الفراغ، وتطرب لها شواشي النخل وأغصان الشجر وهامات الزرع الممتد في بساط أخضر رائق. لكنه لم يلبث أن عدل عن فكرته هذه، واكتفى بابنته، رباها حتى استدارت في أنوثة ظاهرة، ثم زوجها لقريب له، ينحدر من بطن أخرى من القبيلة، ويقطن قرية تقف متواضعة على الجانب الآخر من شريط السكك الحديد، وعلى طرف الصحراء الغربية الوسيعة.

لم يفعل الرجل مثل شيخك الذي يمتلك أربع فيلات فاخرة متجاورة، يضع في كل واحدة زوجة، ويجلس بينهن، وذهنه غير مشغول إلا بالوصفات الطبية التي تمكنه من إشباعهن. يشتريها من حصيلة بيع أسطواناته التي تتزاحم في درج مكتبك، وليست سوى قراءة ركيكة في كتب قديمة، وكذلك الأموال التي تتدفق على جيبه ممن يستخدمونه بوقًا كبيرًا لمشروع جهنمي لا يعرف هو حدوده، لكنه يخدمه بكل ما أوتي من قوة، وحسب القاعدة الشهيرة التي تنادي بالحفاظ على المبلغ، والبقاء في دائرة الضوء بأي ثمن، حيث يتنقل بين ثلاث شاشات زرقاء، يبسمل ويحوقل ثم ينطلق ليملأ الدنيا ثرثرة، وهو يحرك وجهه في كل اتجاه، يبسطه وهو يقول شيئا مليحا مبهجا، لا سيما عن الجنة ونعيمها، ويقبضه حين يتحدث عمن سيصلون سعيرًا وما أكثرهم عنده، ويصوب عينيه في وجه الكاميرا مطلقا شررا حارقا إن جاء على ذكر من يسميهم أعداء الدين، ومنهم أبوك، يا ولدي.

سليم السويركي، ليس كشيخك يطل من الشاشات، إذ لم يكن يقتني سوى مذياع، يسكب في أذنيه الموسيقى، فيطرب لأم كلثوم، ويخشع لصوت الشيخ عبد الباسط، لكنني لم أره يصلي أبدا. كان يصوم مع الصائمين. يزرع ويحصد، ويضحك للداخلين إلى القرية والخارجين منها.

قبل موته بشهور قليلة، جاءت مجموعة من «جماعة التبليغ والدعوة» إلى القرية، ملأوا فوهة الجسر بجلابيبهم البيضاء ولحاهم، والصرر التي تتدلى خلف ظهورهم، وتحت ذيول عمائمهم المميزة. لما رآهم تعجب من منظرهم. كان المشهد جديدا عليه، لكنه راح يمارس هوايته:

- أهلا بالضيوف، أهلا وسهلا، يا ألف مرحب.

توقفوا أمام باب الدار، ثم استأذنوا في الدخول. جلسوا على المصاطب التي كانت تتوازى في باحة أمامية، تجري إلى جانبها مياه الترعة، وتقف في وسطها شجرة ظليلة، عند جذعها زير ضخم ينضح بالماء.

مدوا أيديهم وشربوا، كما كان يشرب كل العابرين، وسليم لا يتأفف أبدا في ملئه طيلة النهار لكل من يريد الارتواء. فلاحون عائدون من الحقول بحلوق جافة، ومارون من القرى المجاورة قادمون من سوق البندر.

سألوه بعد أن شربوا الشاي:

- هل تصلي؟

فابتسم وقال:

- أسمع إذاعة القرآن الكريم، وأصوم، وأزرع الأرض، وأملأ الزير، وأضحك في وجوه كل العابرين، وقلبي يطير ساعات

في السماء، ويدق بقوة حين أتذكر الله، وعيني تدمع حين أرى النجوم البعيدة.

هز كبيرهم رأسه، ثم رفع هامته، ونظر إلى وجه «سليم»، وقال:

- كل هذا رائع، لكنه لا يغني عن الصلاة.

ثم قاموا وقالوا له:

- سننتظرك في المسجد قبل صلاة العصر.

لكن العصر والمغرب مرا ولم يذهب، فأرسلوا أحدهم يطرق بابه قبيل العشاء، وأبواب كل الذين مروا بهم في الطريق إلى المسجد ولم يتبعوهم.

ردت عليهم زوجته:

- راح الغيط.

اعتكفوا في المسجد عشرة أيام، وكان يتهرب منهم، ويقول لهم:

- كل شيء بإذن الله، وله أوانه.

ثم يتذكر «إسماعيل» شيخ الجامع، الذي كان كلما مر به ابتسم له وسأله:

- ألم يأذن الله بعد يا سليم؟

فيرد مبتسما أيضا:

- لم يأذن يا مولانا.

كان الشيخ يسأله عن الصلاة، وكان «سليم» يعرف ما يقصد، ويستعيد كل محاولات «إسماعيل» لأخذه إلى المسجد، ثم يطأطيء رأسه أسفا، ويشرد قليلا، مختليا بنفسه، بعد أن يعطي ظهره للناس والبهائم والزرع، وكل ما يربطه بالتراب، ليجد عينيه تفيضان بالدموع.

وحين حزم رجال «جماعة التبليغ والدعوة» أمتعتهم البسيطة وهموا بالرحيل، مروا بداره، أول دار للقادمين إلى قريتنا وآخر دار للذاهبين منها، وقفوا أمامه وقالوا له:

- نرجو من الله لك الهداية، وأن نراك في المسجد حين نأتي مرة أخرى.

شربوا من الزير، وراحوا ينسحبون على الجسر في هدوء، حتى صاروا بقعة بيضاء تتأرجح فوق التراب الواقف بين الأسود والأصفر، والمستكين بين ذراعي الزرع الأخضر.

ما إن اختفوا في عينيه حتى قام «سليم»، وغرف كوز مياه من الزير، وقال لزوجته:

- كيف أتوضأ؟

لكنها كانت مثله، لا تعرف.

ثم ضحكت وقالت:

- لماذا لم تسأل الشيوخ؟

أجابها بكل بساطة:

- لا أعرف.

فكر قليلًا ثم قال لها:

- سخني جردل مياه.

وجاء بالطشت، وسحبه إلى الغرفة الداخلية، وخلع ملابسه، وصب على كل جسده، ثم ارتدى ملابس نظيفة، وأحضر المذياع، وأدار المؤشر على إذاعة القرآن الكريم، لكن الشيخ «عبد الباسط» لم يكن يتلو في هذه اللحظة، إنما كان رجلا آخر يعنعن ويلوي لسانه وينطق بكلام قديم، فلم يفهم منه شيئا.

أغلق المذياع، ومشى إلى الحصير الذي يتوسط الباحة الخارجية، ودخل في صلاة، لا يعرف عدد ركعاتها، ولا ماذا يقول فيها؟

ركع وسجد، كما كان يرى غيره، حركات جسدية طالما شاهدها وهو يمر على الجسر بين الحقول لفلاحين آخرين، اعتادوا الذهاب إلى المساجد، لكنه لم يتوقف يوما ليسألهم عما تقوله شفاههم التي تتمتم في هدوء.

في اليوم التالي ذهب إلى المسجد، ومع الأيام تعلم كيف يصلي. وحين سألته زوجته:

- لماذا لم تذهب منذ البداية مع الشيخ «إسماعيل» ومع الشيوخ الغرباء الذين دعوك إلى الصلاة؟

ضحك وأجاب:

- لا أحب أن يكون بيني وبين الله أحد.

بعد أسابيع قليلة مات وهو واقف على فأسه والماء يجري تحت قدميه، وظلت زوجته تملأ الزير ليشرب العابرون حتى لحقت به. وترحمت أنا ورفاقي الصغار عليهما طويلًا، فقد كنا نهرع إلى هذا الزير ونحن قادمون نلهث على الجسر، بعد أن تركنا مبنى المدرسة يتضاءل وراءنا، ويغيب رويدا رويدا بين شواشي الزرع وجذوع الشجر والنخيل، نقف أمامه طابورًا من العطشى، يناول أولنا الكوب لمن يليه بعد أن يملأ بطنه، وهكذا حتى يذهب الظمأ عنا جميعًا.

ها أنت ترى الزير، يا ولدي، وقد باض فيه اليمام، وكسته أتربة الجسر، وفي الأيام الهوجاء تصفر فيه الريح وتهزه، بينما ينخر السوس قوائمه الخشبية، وينهش الصدأ طوق الحديد الذي يحضن جسده الفخاري الضخم، بينما تمر أفواج من الناس عطشى.

العتبة الثالثة

امرأة كالنسيم، اسم على مسمى، صبوحة عفيفة، تقترن في غفلة من الزمن بالفاجر الجبار، وتعاند الألم، وترعى الظل، وتتركه ليرطب رؤوس العابرين في لفح الهجير.

لنترك هذا الزير للزمن، لعل أحدا يتذكره ويملأه من جديد، ولنمشِ قليلًا، كي نجد هنا على اليسار بعض أيام أخر لرجل آخر، كان يقطن مكان هذا البيت الذي تقف حوائطه محتضنة أحجارا بيضاء متساوية. بيته هو كان مختلفًا، حوائطه من «الطوف»، الذي تتراص فيه «جواليس» الطين المعجون بعناية ودأب، بعد أن يلف في التبن، ويهندس ليأخذ شكلًا مستطيلًا أو مربعًا، سيان، فهو في النهاية سيدعم في أمثاله بينما يرتفع البنيان البسيط، بقدر ما يستر من بداخله، وتمتد فُلُوق النخل بعد أن تبيت أطرافها في الحوائط، ويفرش الجريد، ومن فوقه قطع النايلون بعد أن يفتحوا أكياس السماد الفارغة، وفوقها طبلية طين بوسع السطح كله.

تحت هذه التعريشة كان يعيش رجل غريب آخر، وكأن الغرباء يحسنون اختيار أماكن سكناهم على أطراف البلاد، ليروا دوما الخلاء الذي جاءوا منه.

الرجل كان يعمل خفيرًا لزراعات أحد أثرياء قرية مجاورة، وكان يأتي كل ليلة إلى قريتنا القريبة من تلك الزراعات ليسهر، ويشتري ما يحتاجه من شاي ودخان. كان اسمه «أبو عطا الله»، أسمر، ممشوق القوام، عيونه محفورة في رأسه ونظرته ثابتة كصقر، وأنفه مفرطح كأنه يريد أن يشفط كل الهواء الساري بين أعواد القصب التي يحرسها وينام فيها. يمشي في خيلاء، ويضرب الأرض بعكازه ذي الدائرة الحديدية المسنونة.

هنا على بعد خطوات من المكان الذي نقف فيه الآن يا ولدي رأى «مفيدة»، الأرملة متواضعة الجمال، لكنها كانت صاحبة بيت الطمي الذي كان مقاما قبل أن يطبق هذا الحجر على أنفاسه حتى يفنيه، قال في نفسه: مبيت دفيء بين جدران بدلا من الطل والخلاء البارد، وامرأة تعد لي الطعام والشاي وتطفئ شهوتي إن حضرت. وتزوجها، وصار واحدا من أهل بلدنا.

كان في نظر الناس نصفين لا يلتقيان أبدا، لكنه جمع بينهما. الحارس واللص. وقف فوق المساحات الفاصلة بين السبيلين دون أن ترتعش قدماه، ولم يلتفت أبدا إلى أحد. الذين عرفوه عن كثب، وأتيح لهم أن ينصتوا إلى كلماته القليلة التي تخرج حادة من بين أسنانه المثرمة، تحدثوا عن شهامته وكرمه. وحين رفض الناس دفاعهم عن لص، ردوا عليهم بكل وضوح:

- يواجههم وحيدًا في سواد الليل، ولا بد أن يصادق حارس الزراعات لصوص المواشي وإلا أشعلوا النار فيما يحرسه.

وحين يرد الناس:

- كان يمكن أن يتجنبهم ولا يجلس معهم.

يضحك المدافعون عنه قائلين:

- يمرون به في ذهابهم ورواحهم، ويطلبون منه أحيانًا شايًا ودخانًا.

لم يستطع أحد أن يحل هذا اللغز، أو يبدد أيا من هذين النصفين، أو يجمعهما في كيان واحد. ومع الأيام لم يعد أحد مهتما بالإجابة على أي أسئلة تطل برأسها من قلب هذه الحيرة. لكن الجميع كانوا متفقين على أنه رجل قاسي القلب، وكانوا يسألون أنفسهم أبدًا:

- كيف تتحمله مفيدة؟

كانت هي سيدة ضامرة الوجه، تمشي في تؤدة خافضة الرأس، توزع ابتساماتها على كل من يراها. تستيقظ مبكرا، تحلب الجاموسة العجفاء، وتجمع روثها لتصنع أقراص «الجلة» التي تحمي بها الفرن كل شهر، وتخبز «البتاو»، ثم توزع نصفه على جيرانها.

فلم تكن الشيخة «زينب» هي المرأة الوحيدة الصالحة في بلدنا يا ولدي، فطين هذه الأرض الطيبة لا يكف عن إنبات الصالحات،

نساء لهن نفس طزاجته، ورائحته التي تضج بالحياة، وطراوته التي طالما لثمت ذيول جلابيبنا الطويلة، ونحن نمرح على ضفاف الترع والقنوات والماء يجري في عيوننا صافيا.

أمام دار «مفيدة» كان المغادرون إلى البندر ينتظرون حافلة حكومية متهالكة المقاعد، وشمس الضحى تحط على رؤوسهم، وعند تأخرها تلسعها فيتململون، ويلوذون بالجدران لكن حين ترتفع الشمس إلى كبد السماء تزيح الجُدر وتضرب كل أجسادهم المكدودة بلا رحمة.

ورأتهم هي كثيرا، فعادت ذات يوم من الحقل تحمل شجرتين صغيرتين من الصفصاف في قفة كبيرة، وكل منها تقف ثابتة بين قمع من الطين المتماسك. وضعتهما أمام الدار، وجاءت بالفأس، وحفرت حفرتين وغرستهما وروتهما بماء غزير، ولم تمضِ سوى سنة واحدة حتى كانت ظلالهما تغمر الرؤوس.

ولاحظت هي أن الناس يتعبون من انتظار الحافلة واقفين، فحملت عدة مقاطف من تراب الزرع، وعجنتها، ثم أحضرت القالب الخشب، وشكلتها قوالب معتدلة القوام، ثم حملتها إلى تحت الشجرتين، وراحت تبني بيديها مصطبة طويلة، ليجلس عليها الناس.

كان «أبو عطا الله» يسخر منها ويزجرها بقسوة:

- لسنا خدما لأحد.

فتبتسم وتقول له في هدوء:

- كله بثوابه.

غاب هو عن قريتنا شهرًا كاملًا، وعرف الناس أنه مريض فلم يعده أحد، وارتاح الجالسون على المصطبة الطويلة تحت الظل الوارف من نظراته الكريهة.

ومات فجأة، فلم يبكه أحد، حتى زوجته الأولى، أم أولاده، التي تنفست الصعداء مع آخر حفنة تراب أهيلت على قبره، ولولا العيب لرقصت. أما «مفيدة» فامتلأت عيناها بدموع ساخنة، وقالت لمن تعجبوا:

- العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام.

وحين قالت لها جارتها:

- كان يعاملك كعبدة.

صمتت برهة وردت عليها:

- كان الله يجازيني ثواب الصبر عليه، وبموته راح الثواب.

لكن رزقت ما يحتاج إلى صبرها أكثر من صلافة الزوج الراحل وقسوته، إنه المرض الخبيث الذي هجم على صدرها فجأة، وراح

يمد أشواكه المسمومة، وكرات اللهب الدقيقة إلى هالات الإسفنج الهشة. وسألها الطبيب:

- هل تدخنين؟

فابتسمت وقالت:

- لا يا بيه، عيب عندنا الست تدخن.

لكنها عرفت منه أن سجائر «أبو عطا الله» ودخان «الجوزة» التي تركها لها في ركن الحجرة الداخلية، ملأت رئتيها بالدخان القاتم.

حجزوها في المستشفى أسبوعًا واحدًا، وكانت مسألة وقت، فأخرجوها ذات ليلة وقالوا لها:

- ارتاحي في بيتك.

لم يأتِ الخلاص يا ولدي سريعًا، فهاجمها العذاب شهورًا. يحل بغتة، فتسعل وتلهث حتى تكاد ضلوعها تتمزق، ثم تنبلج عيناها، وتنظر إلى من حولها، وتبتسم وتتمتم:

- الحمد لله.

ولمَّا يسألها الناس عن حالها، ترد في امتنان:

- راضية وربنا كبير.

وحين يزول عنها الألم قليلًا، تقوم من مكانها، وتأخذ حلة كبيرة، تملأها من الترعة، وتسقي الشجرتين، وترش المصطبة حتى

تهرب الصهد. وكانت إن غرفت في حلتها أي من صغار الضفادع، تعيد بدها وتهشها بعيدًا، حتى تبقى حية.

وكنا بعد أن نرتوي من زير «سليم السويركي» نقف قليلًا تحت الشجرة، لتجفيف عرق الطريق المترب الساخن، وجوهنا إلى الترعة التي تفيض في هدوء، وظهورنا إلى باب بيت «مفيدة» الموارب. كانت أحيانًا تمد عنقها، وتقول:

- تفضلوا يا أولاد.

وكان بعضنا لا يرد عليها، وبعضنا يلتفت إليها مبتسمًا، لكن أيًا منا لم يستجب أبدًا لدعوتها، لاسيما بعد أن حل في دارها صاحب الصوت الأجش، والطبع الخشن.

أما حين أنهكها المرض زارها بعضنا، مع كل أهل القرية الذين لم ينقطعوا عن زيارتها، ورفعوا أكفهم إلى السماء يدعون لها. وحين ماتت صلوا عليها في المسجد، وخرجوا جميعًا وراءها ودموعهم تتساقط على أقدامهم التي تمشي الهوينى خلف النعش. مثلها يا ولدي يعتبرها أمثالك ممن يعيشون في جاهلية، ويزعمون أنهم سيدخلونها في دين الله، وأظن أن الدين هو ما كانت عليه، وليس ما أنت عليه، وها أنت ترى المصطبة والشجرتين، اللتين كلما استظل بهما أحد ترحم عليها، وأتى على ذكر شيء حميد من سيرتها الطيبة التي لا تموت في قريتنا أبدًا.

العتبة الرابعة

راعي الغنم الذي يطوق الحكمة بذراعيه حتى لا يخطفها السفهاء، يعيش حتى ينحني ويدفن رأسه في قدميه، ويجحده مَن كان يطيعه، ويعطيه ظهره متجهمًا، لكنه يقابل هذا بابتسامة تقطر بمحبة دائمة؛ لتغسل أوجاع المشيب.

فتحت عيني على الدنيا، يا ولدي، لأجد بقايا قطيع من الأغنام في دار جدك. كان الناس يصفون قطيعنا قائلين: كان أوله في بيتكم وآخره عند مدخل القرية. ومع هذه البقايا صرت راعيًا صغيرًا. كنت أخرج في الصباح بنعجات قليلات وخروفين، لألتحق بقطيع كبير يضم كل أغنام القرية، ويقوده عم «يوسف أبو أسطاسي»، الراعي العجوز الممشوق الصموت، الذي لا يكف عن الشرود والتأمل، ويوزع ابتساماته علينا بالتساوي.

وزهوت بنفسي حين عرفت في أول المدرسة أن كثيرًا من رسل الله كانوا رعاة أغنام، فكنت أمعن النظر في النعاج السارحة وراء العشب، وأتقافز من الفرح، وأنا أهشها يمينًا ويسارًا، فتميل مع العصا أينما ذهبت.

اختار العم «يوسف» خروفًا ضخمًا وأعطاه القيادة. كان ذا قرنين منتفخين يرتفعان على رأسه كتاج، ثم ينيخان على عنقه إلى الخلف

كحربتين ذاهبتين إلى غمدهما. وما إن يخرج القطيع من فوهة القرية بعد أن تتجمع أشتاته من مختلف البيوت، حتى يقدم هذا الخروف ماضيًا خلف العم «يوسف»، وهو يمشي على مهل، وقد وضع عصاه على كتفيه، فيتبعه القطيع في عمى، لا يحيد عن الطريق.

أما أنا وبعض رفاقي الصغار فكنا نمشي في الخلف، وتضيع أجسامنا في عجيج هائل، وآذاننا تتابع همهمات الغنم الذاهبة إلى حيث يكون الكلأ، وهي تتزاحم وتتهارش فيدخل الصوف في الصوف، ويبدو القطيع وهو يتقدم إلى الأمام على مهل وكأنه قد صار كتلة لحم ضخمة رجراجة.

كنا أحيانا نغمض أعيننا ونمشي، والعصي التي في أيدينا، ممدودة إلى الأمام ومستقرة على ظهور النعاج، أو مغروسة في تلافيف الفراء، وخطواتنا مضبوطة على سير القطيع، حتى نبلغ المراعي فيسرع الخروف القائد نحوها، وتجري النعاج وبقية الخراف خلفه، فتترك الأرض وراءها سوداء لا شيء فيها، كلحيتك هذه، يا ولدي، الخالية في نظري من أي معنى، وكرأسك الذي تتزاحم فيه المعاني، وتتصارع بلا هوادة، ويقتل بعضها بعضًا، فتصير خاوية، تزعق فيها الريح.

المهم أنني أحببت الغنم لكني كرهت أن أكون مثلها، وزادت هذه الكراهية يوم أن هجم الذئب على أطراف القطيع والعم «يوسف» نائم، ونحن لاهون نلعب «السيجة». أمسك حملًا صغيرًا

يفكيه الحادين، وراح ينهشه، على مسافة من الخروف القائد وبقية الخراف والنعاج. وقف كل القطيع عاجزًا يرتعد، ولو أن الكباش هجمت عليه بقرونها الطويلة المسنونة، فربما أنزلوا الرعب في صدره، وفر هاربًا لا يلوي على شيء. صرخنا واستيقظ العم وجاءت الكلاب متأخرة، فضاع الحمل، وعاد القطيع إلى مكانه بعد أن طردنا الذئب، يجتر ما تبقى في أجوافه، وكأن شيئا لم يحدث.

وكان معنا طفل اسمه «أسعد»، استغنى عن رأسه، يفعل ما يُطلب منه دون أن يتوقف برهة ليسأل عن شيء. أرسله ذات مرة العم «يوسف» ليشتري شايا وسكرا، وجلس ينتظره على أحر من الجمر الذي أوقده أمامه، ودفن داخله برادا يغلي بماء أبيض. وعاد بعد ساعة ومعه قرطاس كبير مملوء بالسكر، لكن ليس معه الشاي، وحين سألناه، قال: أنتم قلتم: «هات شاي الشيخ الشريب، فلم أجده في أي دكان، ووجدت أصنافا أخرى، لكني لا أحتاجها فلم أطلب منها شيئًا».

وهكذا كان يسير على المنوال ذاته في أي مهمة يُكلف بها، لا يعمل إلا بما سمعه ويطيع ما يقال له دون أدنى تفكير. وضاق به العم «يوسف» فكان يناديه دوما: يا خروف. ثم وجد له عملا يليق به. ناداه ذات صباح فذهب إليه مسرعا، وقف أمامه، ورفع عينيه، وهز رأسه منتظرا ما سيؤمر به، فقال له:

- هل ترى الخروف القائد؟

- أراه.

- مهمتك منذ اليوم أن تمشي إلى جانبه، والغنم وراءكما.

- لمَ؟

- يلزمنا خروفين من قدام.

وتذمرنا نحن الأولاد على ما لحق بصاحبنا، وهممنا أن نعترض، لكننا وجدناه يرقص فرحا على مهمته الجديدة، ويجري مسرعا حتى وصل إلى الأمام، ثم أناخ بجسده قليلا وهو يمشي، حتى أصبح ظهره في مستوى ظهر الخروف، ثم مأمأ، وانطلق في ضحك هستيري، بعد أن ألقى العصا على جانب الطريق.

وبعد يومين رق قلب العم «يوسف» له، فناداه، وطبع قبلة على جبينه، وخصه بقطعة من الحلوى دسها في يده، وقال له:

- عد لتمشي مع أصحابك، أنا كنت أهزر معك.

ففوجئ به، ينزع الحلوى من بين لسانه وفكيه، ويصرخ وتنهمر دموعه غزيرة ساخنة، ويضرب قدميه في الأرض، ويقول:

- لا .. لا.

فربت الرجل كتفه، وهز رأسه، ونظر إليه مليا في شفقة، مستعيدا كل ما سمعه عن حكايات القهر التي يكابدها مع أبيه صاحب الصوت الأجش والكرش الكبير، وقال له:

- خلاص يا أسعد، زي ما تحب.

وفي يوم مرض العم «يوسف»، وخرجنا بالقطيع نحو الخلاء. كان «أسعد» إلى جانب الكبش الكبير في المقدمة، ونحن في الخلف نهش على الشاردة والتائهة والكسولة، وكنا نسير فوق جسر عال، وننظر إلى البركة الآسنة الممتدة تحت أعيننا والبوص الواقف على جنباتها يداري دجاج الماء والشرشير. وفجأة جفل الخروف القائد حين وقعت عيناه على سرب من الشرشير متكوم بعضه فوق بعض، فظنه ذئبا رابضا، ووجدناه من الهلع يرمي بجسده من فوق المنحدر، باتجاه السرب، وفي اللحظة نفسها كان «أسعد» يسابقه نحو الهاوية، ومن ورائه كل القطيع.

وعدنا، يا ولدي، في المساء لنجد العم «يوسف» ينتظرنا على باب القرية، متوكئا على عصاه، وفي عينيه ألم. كان يسعل بشدة، يهتز لها جسده كله، ثم يتكلم بكلمات تخرج كصفير حاد، ونحن نصت إليه.

قال لنا يوما إن الراعي الصالح لا يهمل غنمه. وأخذ «أسعد» من يده وداس عليها وقال له:

- سأحكي لك حكاية الخروف الضال.

وأنصتنا إليه بكل كياننا، فلما انتهى سألته أنا:

- أين تعملت هذا يا عم يوسف؟

ابتسم، وسعل من جديد، وقال:

- حكاها لنا القس بكنيسة العذراء في الزمان الأول.

لكننا لم نر العم «يوسف» يذهب إلى الكنيسة أبدا. وإن كنا رأينا الكنيسة معه طيلة الوقت. يتوه قليلا وهو يدس براد الشاي في الجمر الصافي، ثم يقول لنا:

- من يكذب منكم أو يسرق أو يقتل أو يسب صاحبه أو يهمل غنمه ستكويه هذه النار يوم الدينونة.

ثم تتساقط قطرات من عينيه، يمد طرف كوفيته العريضة ويمسحها، ويقول:

- الله يحبنا، ولا يريد أن يعذبنا، لكننا نحن الذين نعذب أنفسنا.

ويمد عينيه ليتابع القطيع وهو لاهٍ في المرعى، ويصب الشاي الأسود في كوب صغير من «الصاج» ويشفط رشفة عميقة ويتابع:

- لا تضربوا الغنم بقسوة، هشوا عليها من بعيد، ولا تجعلوا أحدًا في هذه الحياة يتألم بعملكم حتى لو كان كبشًا نطيحًا.

كان يختار أرضًا بورًا للنار التي يوقدها، لم نره يومًا يضع الحطب فوق بقعة خضراء، حتى لو كانت من الحشائش الضارة،

أو هكذا نسميها نحن لأنها تنهب غذاء الزرع الذي نزرعه فتتركه هشًا مصفرًا. يرمي بصره حول القطيع النائم أو الهائم حتى يجد بقعة قاحلة، فيمشي إليها، ملفوفا في ذهب شمس العصاري الحزينة، وينظر إلى مَن كان عليه الدور في جمع الحطب، فيرمي بحمولته الضئيلة، ويجلس العم «يوسف» إلى جانبها، ويدس بين السيقان الدقيقة الجافة بعض القش، ويمد يده إلى جيبه، ويخرج علبة الثقاب، يلتقط أحدها ويشعله، ويمده إلى قلب الراكية، وهو يتمتم: «يا ربنا حرم أجسامنا عليها». وحين نسأله:

- لمن تدعو ربك يا عمنا؟

يبتسم ويقول:

- لنا جميعا.

وذات مرة ضجر ولد منا من المشي وراء العم «يوسف» وهو يبحث عن بقعة قاحلة، وقال:

- لازم وجع القلب، النار توقد في أي مكان.

وتوقف العم عندما سمع كلامه، والتفت إليه، وكنا جميعا نمشي خلفهما، واعتقدنا أنه سيصفعه على وجهه، لكنه وضع يده على كتفه، وقال له:

- لا يجب أن تؤذي روحا حتى لو كانت نبتة لقيطة حمل الريح بذرتها.

مثل هذا الرجل الطيب تراه أنت يا ولدي كافرا، وتقول بملء فيك: «سيدخل النار حتما»، وكأن الأمر قد صار بيدك. وحين كنت أجادلك في هذا وأشكو، كنت تأتيني بآيات قرأتها، أو قرأها أحد لك، على عجل، وتقول في غضب:

- إنما هو حكم الله.

وتتذكر أنني كنت أسألك:

- من أين عرفت؟

- آيات القرآن.

ولما أقول لك:

- لا تقرأ الآيات بظاهرها، وهناك آيات أخرى تبين نقيض حكمك القاسي.

تهز رأسك وتبتسم، وكأنك تسخر من أبيك، وترد في ثقة غريبة:

- هذه آيات منسوخة.

ولما أرفض ما تقول، تبتعد عني، معتقدا في جهلي وربما فسوقي أو حتى كفري، وتقول:

- هذا كلام الشيخ، وهو يعرف أكثر.

تمشي وراء شيخك أعمى، كالخروف الضال. تمشي كما كان يمشي «أسعد» في الزمان الأول. شيخك يردد كالببغاء كلاما مسجوعا وراء شيوخ قدامى، عاشوا في القرون الغابرة، جاوبوا عن أسئلة زمانهم ثم تدثروا بالحصى، وصمتوا إلى الأبد، لكن ما قالوه عن أيامهم صار معصوما في أيامنا. اشتغل الوراقون والخطاطون، وامتلأت الأرفف بالكلام، وصارت إجاباتهم القديمة ترد على أسئلتنا الجديدة. إنها المأساة ذاتها التي كلمنا العم «يوسف» عنها يوما، كان تائها وعيناه تحطان هناك عند شط النهر المسافر إلى البحر البعيد، ويقول:

- راعي الكنيسة يقول لنا كلاما غريبا، ويطلب منا أن نردد وراءه، أنا أغلق فمي ولا أنطق إلا بكلمة واحدة أعرف معناها هي: آمين.

كان وقتها يعلق على زميل لنا التحق بالقطيع مع خمس نعجات وخروف ولسان لا يقدر على نطق نصف الحروف تقريبا.

ضحك «أسعد» عليه وكذلك فعلت أنا، لكن العم «يوسف» نهرنا، وقال:

- على الأقل صاحبكم يقول كلاما نفهم بعضه، ونعرف أن كله ينشغل بأيامنا وأحوالنا، أما القساوسة فيرطنون باليونانية أو القبطية القديمة، لنظل نحن مسحورين بالأصوات التي تخرج من أفواههم، ونرفعهم فوقنا.

لا أنسى هذا الموقف في حياتي، ظل محفورا في رأسي، أستعيده كلما سمعت أحدهم يبرطم بكلام قديم. أضحك وأقول: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»، الله يسر قرآنه، وجاءوا هم لينسجوا حول متنه العامر بالجلال والمعاني السامية تخاريج وتعاويذ وتحريفات وتأويلات وأوهام، يشدونها نحو مصالحهم، ويقولون للناس: هذا شرع الله، وأنت تردد وراءهم يا ولدي: هذا شرع الله.

ويوم غضبت منك وقلت لك:

- أقله لله وأكثره لكم وتنسبونه له سبحانه ليكون لكم في نفوس عباده ما له.

يومها امتقع وجهك، وطفح دم في عينيك، ووقف شعر لحيتك كأنه حراب مسنونة، ثم رفعت يدك حتى حسبت أنك ستصفعني، لكنك أشحت بها في وجهي، ثم قطعت خطوات سريعة نحو باب الغرفة، وقبل أن تغادرها، استدرت نحوي بكل جسمك، وقلت:

- خليك مع يوسف أبو أسطاسي وستحشران سويًّا.

يومها لم أكن أحسب أن ما قلته لك ذات عصر، في لحظة صفاء، عن شذرات عابرة من طفولتي وصبح أفراحي، قد استقر في رأسك. فقد قصصت عليك مواقف أخرى عديدة، ووجدتك قد نسيت كل شيء، حكاياتي ذهبت سدى، أو طمست تحت سطوة الحكايات الجديدة التي صبها في رأسك البيغاوات ذوو اللحى الكثة.

ما قد يفرحك هو ما جرى لأسعد، وخبأته عنك. سار ببطء في مشوار تعليمه حتى حصل على دبلوم فني صناعي، كان المدرسون يقولون له دوما:

- أنت حافظ ولست فاهمًا.

وكنت أجلس في الصف الذي يسبقه، وأستعيد أوقات سيره إلى جانب الخروف الكبير، وأدرك لماذا يقول له المدرسون هذا؟ المشكلة أن ذاكرته لم تكن قوية بالقدر الذي يجعل المعلومات «تبات» فيها أكثر من ثلاث ليال، ولذا لم يشفع له حفظه في أن يتقدم في التعليم خطوات أبعد مما وصل إليها.

بعد تخرجه ظل سنوات يرعى الغنم ويضرب حقل أبيه بفأسه إلى أن توسط قريب له في البندر ووظفه في هيئة الكهرباء بمدينة المنيا. وزامله شاب كان ينتمي إلى «الجماعة الإسلامية» وجذبه إليه، فأطلق لحيته، وازدادت ملامحه تجهما. كان يعود من عمله بعد العصر، ويمر بدار العم «يوسف» فلا يلتفت إليه. حتى حين كان الرجل يجلس أمام الدار تاركا ساقيه للشمس وموزعا امتنانه على المارين من أمامه، لم يكن «أسعد» يعيره اهتماما.

وفي يوم ناداه العم «يوسف» بصوت مجروح:

- يا أستاذ أسعد.

لكنه مضى في طريقه غير عابئ بالنداء، ولاحظه رجل كان يمضي في الاتجاه المضاد، فقال له:

- رد على رجل في سن جدك.

فأشاح «أسعد» بيده، وانتفخت عروقه بغضب عارم، وأدار جسده نحو العم «يوسف»، وقطع نحوه عشر خطوات كاملة، ثم صرخ فيه:

- أنا لا أتكلم مع نصراني كافر.

وفي بعض الليالي كان يتسلل متدثرًا بظلمة الشوارع الضيقة حتى يصل إلى «الصهريج» الصغير، ويرمي بابه بأحجار جمعها في طريقه، وهو يقول في نفسه:

- لن أرتاح حتى ترحل هذه الفاجرة التي يسمونها الشيخة زينب من بلدنا.

كان «أسعد» مثلك يا ولدي، استبدل بقطيع الغنم آخر من البشر، انساق معه، لم يتوقف ولم يتبين ولم يتريث ليفهم ما يقال له، بل سحره الكلام الغامض الآتي من قعر الزمن البعيد، وظن أن ما يقوله أمير الجماعة هو حق اليقين وعينه، وأن به مفتاح الفردوس الأعلى.

لم تنقر كلمات العم «يوسف» القديمة شيئًا في رأسه، مثلما فعلت مع أبيك، وهام خلف مَن أشعلوا في شوارعنا النار وسفحوا فيها دمًا غزيرًا.

ولا تحاججني، يا ولدي، وتقول متباهيًا إن كلام أمير الجماعة يدفق في أوصال «أسعد»، وأزال عنه صمته وعجزه، فالحقيقة أن «أسعد» هذا أعمى في الحالين، في الأولى كان أعمى في صمت، وفي الثانية هو أعمى أيضا وإن كان يثرثر ويجادل ويطلق الضجيج يلوث به أسماع الناس.

هل تعلم، يا ولدي، أن ابن حفيد العم «يوسف» واسمه «ناشد» قتله أمثال «أسعد»، وهم أمثالك أيضا لأنهم عرفوا أنه مسيحي. لم يسألوه حين أوقفوا الحافلة التي كان جالسًا على أحد مقاعدها ذاهبًا إلى رزقه، بل رأوا الصليب الأزرق مطبوعًا على بطن معصمه، فأطلقوا النار عليه دون أن يعطوه فرصة لينطق حرفًا واحدًا، أو يذرف دمعة واحدة، أو يرى الطريق الذي يشير إلى الشرق، حيث يمكن أن يعود إلى هنا.

مَن قتله، ربما أكلت معه وشربت، أو شاركتما سويا في قتال من أجل اقتناص بئر نفط يمور في صمت على شاطئ البحر الوسيع. وربما رأيت أنت بقعة دم «ناشد» على جلباب صاحبك الأبيض حين عاد من رحلة القتل، وربما تكون أنت من قتله.

كان «ناشد» يشبه جده «يوسف» تمامًا، قطعة منه كان، وكان بوسعي أن أريك الجد في الحفيد، لو تركتموه يعود سالمًا سليمًا، وليس ست قطع تتأرجح في صندوق قديم. فبعد أن سكن الرصاص

جسده، مزقوه بالسيوف والسواطير، وتركوا الرمل يزحف إلى لحمه في بطء.

وما لا تدريه أنت، يا ولدي، أن العم «يوسف» ترك لحيته في آخر أيامه. كانت شهباء خفيفة كأنها خيوط من القطن بعثرها الريح، ولما خانته ساقاه راح يتوكأ على عصاه، فبدا وهو يمشي على الجسر راهبا من زمن بعيد، وكان هو في الحقيقة راعيا من زمن أبعد.

العتبة الخامسة

الصخرة العنيدة كبغل هرِم، والمسنونة كإبر صدئة، تصير رملًا ناعمًا في لحظة خاطفة، تستريح للمسه الأقدام المجهدة من طول الترحال. والوجيه المغرور يتواضع، ويلملم العبوس الذي أقام على وجهه سنين، ليفرش البسمات، ويتبدل شره المستطير خيرًا عميمًا.

انظر، يا ولدي، هناك في هذا الطرف الفسيح لقريتنا، حيث حكاية تروى عن ذلك البيت الوسيع الذي أناخ عليه الدهر، وتلك الجميزة الوارفة التي كانت تبدو غابة كاملة، والآن قد سكنها البوم، وانقطعت ثمارها، وهزت الريح أفرعها بقسوة حتى صارت جرداء، إلا من بعض أوراق تدل على أيام مجدها الغابر.

البيت والشجرة كانا لعائلة لا أحد يعلم منبع ثروتها على وجه اليقين، فهناك من يتحدث عن سرقة كبيرة أطلقت لها رحلة التمكين، وهناك من يقول: كانوا بارعين في تربية الجاموس والبغال، ومن عمليات بيع وشراء، تتابعت كأيام السنة، امتلأت القدور بالمال، فاشتروا الأرض وبنوا الدور العالية الوسيعة، وذهبوا إلى صاحب السلطان يطلبون العُمدِّية فمنحها إياهم.

في طفولتي رأيت عمدتهم قبل الأخير، كان رجلا فارع الطول ذا وجه مثلثي، يمشي الهوينى، ولا يلقي السلام على أحد، وحين

تراه النساء يسحبن أغطية الرأس على وجوههن في خفر، ثم يختبئن في أي جحر يتهادى أمامهن. أما الرجال فيقفون متطلعين إليه كي يحييهم، بلا جدوى، والراكب منهم يترجل، ويجر الحمار وراءه ثم يسرع الخطى مبتعدا عن مسار العمدة. وفي المواسم يأتي إليه التجار من البندر يتسابقون على محاصيل أرضه، والغلال التي جمعها هو من الفلاحين بثمن زهيد.

أما أخوه الأصغر، واسمه «حيدر»، فكان على النقيض من ذلك. ربعة وذو وجه مستدير عبوس وأنف أفطس قليلا، ما إن يظهر في الشارع حتى تغلق النساء الدور، بعد ما وصلتهن أطراف أخبار عن شهوانيته. وحين يجلس إلى الطعام يأكل بأصابعه العشر، ولا يقيم علاقة إنسانية مع أي كائن سوى بغله، الذي يتخالط في شعره الأبيض والأسود والرمادي، يركبه ويرمي ساقيه نحو الفراغ وهو يجري يدك الأرض، غير عابئ بالأطفال المنزلقين من عتبات المنازل إلى أنهار الشوارع الضيقة.

ويراه الناس فوق بغله فيهمسون:

- يتشابهان في العناد والعقم والشحيج والرفس.

ويوم أن مات أخوه الأكبر لم يذهب خلف الجنازة، إنما جلس مكانه على الكرسي، ونظر إلى كل من حوله والدهشة تعلو وجوههم، وأطلق ضحكة طويلة رقيعة، ثم طلب أن يأتيه شيخ

الخفر على عجل. ولما أتاه يلهث، ووقف أمامه وفي عينيه انكسار، نظر إليه بتبلد شديد ثم صرخ فيه:

- اجمع الخفر.

ولاذ الرجل بالصمت، ودخل في نفسه، ولم يجد ردًّا، بل صدرت عنه همهمات انداحت في آذان الواقفين غمغمة مكتومة، ثم استدار وذهب لينفذ ما أُمر به، لكن الجالس على الكرسي صرخ فيه:

- لا تعطني ظهرك وأنت تخرج.

فالتفت إليه، بعد أن فاض به الكيل، وسأله في صوت خفيض:

- لحم أخيك طري في تربته، والحكومة لم تعين عمدة بعده.

عندها قهقه، ثم زم شفتيه، وداس على ما بقي من أضراسه، وصرخ فيه:

- أنا العمدة.. هذه مسألة محسومة.

وجاء القرار الإداري فعلا بتعيينه مكان أخيه، فركب البغل، وتجول في كل شوارع القرية وحواريها، وأمر الناس أن يتركوا البيوت مفتوحة، وأن تزغرد النساء فرحا بقدومه، ويرقص الرجال، ويهلل الأطفال. اغتصب الأفراح في كل الأرجاء، ورفع بوزه في وجه الناس، ولم يلق السلام على أحد. وبينما الناس يتراقصون

ألما جاء المأمور على حصان بني، فلما رآه راكبًا البغل، نزل سريعا، وجرى إليه، ووقف عند قدميه وقال:

- بلدنا نورت يا سعادة البيه.

ثم تطلع إليه ليلتقط كل حرف يتساقط من شفتيه، لكنه فوجئ به يسأله:

- كيف أخبار البغل يا عمدة؟

- بخير يا أفندم.

فضحك المأمور، وقال:

- لو الأمر بيدي لعينته مكانك.

ولسعه الكلام، لكنه لم يجرؤ على الرد. ورآه المأمور يتضاءل أمامه فأشفق عليه، وحكى له أمام الناس عن الإمبراطور الروماني كاليجولا الذي عين حصانه في مجلس الشيوخ وأجبر أعضاءه على أن يأكلوا التبن مثله. ثم ضحك المأمور وأنشد يقول:

«فأوصيكم بالبغل شرًّا فإنه

من العير في سوء الطباع قريب

وكيف يجيءُ البغلُ يومًا بحاجة

تسرّ وفيه للحمار نصيب؟»

وما إن انصرف المأمور حتى انشغل العمدة الجديد بالأمر، وعاش أياما شاردًا، قل فيها طعامه وزاد إقباله على التدخين واحتساء الخمر، وانعزل أياما عن أهله وعشيرته حتى ظنوا أن جنونا قد مسّه. لكن شكوكهم تأكدت تمامًا حين وجدوه ذات صباح قد وضع عمامة كبيرة على رأس البغل، ولفه في ثوب كبير من الحرير الأخضر، ثم سحبه نحو كرسيه العريض، ودفعه برفق وهو يطيعه حتى استقرت مؤخرته فوق الكرسي، وأشاح برأسه في وجوه الواقفين، ثم جلس تحته وراح يقول لهم:

- تقدموا لتبايعوا حضرة العمدة الجديد.

وما لا تعرفه أنت يا ولدي أن أول من بايع كان «أسعد». ورغم أن أميره وشيخه وبَّخه لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ولأن العمدة في نظره رجل كافر فاسق، يحكم في الناس بغير ما أنزل الله، فإن «أسعد» قال لأمير الجماعة:

- أريد أن أتجنب شره.

يومها سخر الأمير منه، كما بلغني فيما بعد، وقال لـ «أسعد» بعينين تقدحان شررًا:

- قمنا لنسقط الحاكم الكبير، رئيس هذه الدولة الكافرة، فإذا بواحد منا يبايع مجرد عمدة قرية على السمع والطاعة.

ليلتها قضى «أسعد» ساعات بين كتب صفراء يبحث عن تبرير لما فعله، أو «تخريجة» من المأزق الذي وجد نفسه فيه، حتى عثر عليه مكتوبًا في سطر تنتهي به صفحات طويلة من كلام غليظ، فحفظها عن ظهر قلب، وذهب في الصباح بخطى واثقة وقال للأمير:

- له مني طاعة الأمراء، ولك طاعة العلماء.

لكن كلامه لم يزد أمير الجماعة إلا سخرية واشمئزازا. أنصت إليه حتى فرغ من كلامه ثم قال له:

- فارقت جماعتنا، وأقلناك من بيعتنا.

وطرده شر طردة.

لم يحلق «أسعد» لحيته بل تركها حتى صارت أطول من لحيتك يا ولدي، ولم يطلق أي قدر من وداعة في ملامح وجهه، ولم يسكن عينيه أي اطمئنان، بل وجد ضالته في رجل آخر، لحيته أكثر طولا، وكرشه أكبر، وكذلك سنه. إنه واحد من الرجال الذين كانوا يأتون إلى قريتنا بين حين وآخر يدعون الناس إلى الصلاة. ربما هو الرجل الذي هرب منه «سليم السويركي» ذات يوم حين طلب منه أن يتبعه إلى الجامع.

وفي المساء ذهب «أسعد» إلى بيت العمدة وقال له:

- انضممت إلى جماعة التبليغ والدعوة، وشيخها يستأذنك في أن تصلي معه العشاء.

وأرغى العمدة وأزبد، وسحب نفسًا طويلًا من الشيشة الواقفة إلى جانب فخذه كخفير الدرك، وقال:

- اذهب أنت وشيخك إلى جهنم.

لم يغضب «أسعد»، يا ولدي، بل امتلأ بأيام الرعي، واستحضر مآثر الخروف الكبير، ورد بصوت لا يكاد يسمعه غيره:

- تحت أمرك يا عمدة.

الوحيدة التي كان العمدة ينتفض حين يراها هي الشيخة «زينب»، وهي الصوت الأعزل في البلدة كلها الذي كان بوسعه أن يسمعه سم الكلام. تسبه وهو يضحك. تقبض يدها في وجهه وتقول له: غور، فتفرج أساريره، وأحيانا كانت تلقي على صدره حصًى صغيرًا، وتقول له:

- أتاني من جهنم مخصوص لك.

يوم ماتت كان أول مشيعيها. تقدم وحمل مقدمة النعش، ورفض أن يستبدله أي أحد من رجاله. كان يمشي متعثرًا في دموعه، حتى وصلت الجنازة إلى المقبرة. أصر أن ينزل بنفسه إلى الحفرة التي جهزها الرجال، وراح يشق تحت الحصى المتماسك شقًّا على قدر جسدها النحيل، ثم طلب منهم أن يرفعوها من الخشبة، وحطها بيديه، وأغلق عليها بأحجار متساوية، ثم صعد، وقال للناس:

- لن يردم قبرها غيري.

أعطوه الفأس، فراح يهيل التراب حتى استوت الأرض، ثم رش فوقها الماء، وغرس الصبار، وبعد أيام بنى فوقها شاهدًا عظيمًا.

في طريق العودة، وجده الناس يخرج من جيب جلبابه الكشمير الأسود حصوات كثيرة، ويرميها في كل الاتجاهات بقوة وقسوة، وهو يبكي بحرقة، كطفل أخذوه من حضن أم رءوم.

هل تعلم يا ولدي من أين اصطحب هذه الحصوات؟ ولم رماها؟ لا أعتقد أن بوسع خيالك أن يصل إلى الحقيقة، فأنت لا تؤمن بأن الله قد منح بعض عباده طاقة روحية فائقة، وتقول إنها أساطير الأولين.

العمدة نفسه هو من أفشى السر. قال للذين سألوه عن سر الحصى الذي رماه في طريق عودته من المقبرة:

- وجدتها في جيب كف الشيخة زينب، واعتقدت أنها كانت تختزنها لترميني بها، فأخذتها ورميت بها إبليس اللعين.

بعد أيام باع البغل الذي أجلسه ذات يوم مكانه ليحكم الناس، وجاء بخطاط ليكتب على حائط السلاملك «بيت العدل»، وتزوج من امرأة فقيرة، لم يصدق أهلها أنه طلب يدها، وإلى الآن لا يدرون كيف صاهروا الجاه والمال. وأنجب منها أربعة أولاد وبنتين سمى الكبرى «زينب»، وانتظم في الصلاة. في مواسم الحصاد يوزع الغلال، وفي كل المواسم يوزع الابتسامات وطيب الكلام. وفي

ليالي رمضان يأتي بمقرئي القرآن من البندر يرابطون ثلاثين ليلة، ويفتح الديوان بالساهرين، ويوزع عليهم بنفسه الطعام والشاي والحلوى. وأحيانًا كنت أراه جالسًا على كرسيه في ساعة العصاري، حوله ماء مرشوش، وفي يده كتاب، وبعد أن كبرت عرفت أنه كان يشتري كتب دين وروايات ودواوين شعر وكتبا في السياسة من مكتبات البندر، فذات يوم أدخلني مخدومه «عطا الله» غرفة وسيعة، عليها أرفف تنام فوقها كتب مرصوصة بعناية، وقال لي:

- كتب البيه الله يرحمه.

أرأيت يا ولدي، كيف يجب ألا نتعجل في الحكم على خلق الله؟ طالما قلت لك هذا وأنت ترمي بعض أساتذتك في كلية الهندسة بأنهم كفار، وأن قتلهم واجب. كنت تدوس على أضراسك، وتقول:

- هؤلاء لا يعرفون إلى الله سبيلا.

وكنت أرد عليك:

- لا يعلم السرائر إلا ربك، فلا تتعجل.

أتتذكر كلامي هذا؟ لا أعتقد أنك قد نسيته، لكنك ربما تجاهلته، وسخرت منه في رحلتك المريرة من مقاعد الدراسة إلى كهوف أفغانستان ثم إلى صحراء ليبيا. كم واحد منهم مثل عمدتنا؟ هذا

إن اعترفنا أصلًا بأن وصفك لهم صحيح. هذا الوصف الذي ظل يملأ رأسك، ولم تتنازل عنه أبدًا، وأنت توغل في العمى، وتغلق أمام الخطائين باب التوبة، مع أنك مضيت حاملًا خطيئة تلو خطيئة فوق ظهرك، وتلطخت يداك بدماء الأبرياء، ولم تقف برهة لتلتقط أنفاسك، أو تراجع نفسك مثلما فعل رجل، ملك الجاه والمال، لكنه في لحظة اهتز قلبه، وفاضت عيناه، وتبدلت أحواله.

العتبة السادسة

حاملة الأفراح والأتراح النائمة فوق سطور تعانق الأبيض الفارغ، تعبر سريعًا، في غفلة من الزمن، قنطرة هشة بين الصبا والكهولة، تمضي حياتها قاسية فوق أرض بور، منتظرة العابر الذي خطف مدريتها في لحظة وهرب بعيدًا، ولم يرسل لها سوى جمرات من مظلمه المتفحم راحت تتساقط، بلا رحمة، على وجهها الذي قددته الأيام العصيبة.

أترى البيت كالح الجدران يا ولدي؟ انظر إليه جيدًا، وطالع آثار الأيام، وتلك العبارة الباهتة المتآكل نصفها المكتوبة بخط أحمر نشع عليه سواد السنين. إنه بيت «عبد الرحيم»، الذي إن طرقت بوابته العالية ستخرج لك سيدة تمشي متثاقلة بقدمين مقيدتين بعمرها المترع بالشقاء. إنها «سلوى»، موظفة البريد، وعائلة الدار التي رحل رجالها تباعًا. الكبير مات ودفنت معه حكمته وصمته وأدبه الجم. الابن الأصغر سافر إلى الإمارات وأخذته مزارع «العين» وفتيات الهوى الروسيات في «دبي»، والابن الأكبر يسير في الشوارع حافيًا يكلم نفسه بعد أن تداعت فتوته العارمة. بنتان تزوجتا في قرى بعيدة، ولم تبقَ سوى «سلوى» هذه، التي تأكل من كتابة رسائل التلغراف، وترتيب أظرف الخطابات التي يرسلها رجال قريتنا الذين شدوا الرحال سعيًا وراء أرزاقهم الشحيحة.

قد تعتقد، يا ولدي، أنني سأضيع وقتك في الحديث عن سيدة عادية، وحكاية عابرة أو متكررة، تتعثر فيها أذنك أينما حللت،

لكنك لو صبرت عليَّ قليلًا ستجد أن ما جرى لـ «سلوى» يهمك كثيرًا، وقد تلقى فيه عبرة، إن كنت لا تزال بحاجة إلى نصيحة من والدك، الذي أعطيته ظهرك سنين، ورحت تفتش عن الخلاص في الكهوف البعيدة التي يسكنها الشر والدم وكوابيس النهار.

تزوجت «سلوى» من قريب لها أتى من البندر، كان يعمل سائق عربة نقل، لكن طيشه لم يؤمِّن له دخلًا مستقرًّا، فوجد في راتب زوجته البسيط، ودخل حديقة صهره الصغيرة وقطعة الأرض المحدودة التي يمتلكونها فرصة للعيش من دون عناء.

كان يقضي نهاره جالسًا عند مدخل القرية، يرد سلام العابرين بلا عناية، أو يذهب أحيانًا إلى قطعة الأرض البور ليلعب كرة القدم مع الغلمان، وفي الليل ينقطع إلى طاولة الدومينو حتى مشارف الفجر. واستمرت حياته هكذا شهورًا قليلة، وذات ليلة قرر أن يهاجر إلى العراق.

هاجر مثلك دون أن يخبرها بشيء، لم يقل لها ماذا سيعمل هناك؟ ومتى سيعود؟ جمع كل ملابسه، حتى البيجامة التي ارتداها بعد أن فض بكارتها، والشبشب الجلد الذي طالما طرقع به على المسارات الصلدة في شوارع قريتنا المترية. وقف عند الجسر ينتظر صديقًا قادمًا من البندر على دراجته البخارية، فركب خلفه ومضى دون أن يسلم على أحد، ودون أن يلتفت ليودع البقعة التي حفرت مقعدته فيها مكانا وهو يروض الوقت في جموده العتيد.

غريب جاء وأغرب مضى.

وترك لها ذكريات أليمة، وعبارة كانت ترددها كلما سألها الناس عن حشونة طبعه: «ضل رجل ولا ضل حيطة».

طال غيابه، ولم يكتب لها حرفًا واحدًا، لكنها كانت تكذب وتقول للناس:

- جاءني اليوم خطاب منه يشكو لوعة الفراق.

أتذكرها الآن يا ولدي، حين كانت شابة لم ترَ كل ظمأها وهي تنظر بلا جدوى، وأشفق عليها، بل أجد فيها بعض السلوى؛ لأنك أيضًا ذهبت دون وداع، ولم تكلف نفسك وأنت جالس تحت ظلال جبال «تورا بورا» العالية أن ترمي لي حرفا على قصاصة ورق، وتدسه في يد أحد من رفاقك ليلقيه في أي صندوق بريد، إلا مرة واحدة، وصلني منك خطاب، هو الأول والأخير، فتجمد بصري.

نسيت أن أقول لك إن اسم زوج «سلوى» كان معبرًا عن شكله ومسلكه. اسمه «مشحوت»؛ لأن كل أولاد أمه قبله كانوا يموتون في المهد، أسمته هكذا حتى يعيش، وعاش ليموت في أرض غريبة.

هكذا حكى بعض العائدين من العراق. فكثير من شباب قريتنا كانوا يذهبون إليها قبل أن يضربها الأمريكان، ويتركوا بعضها يضرب بعضًا. قابلوه غير مرة، لكن من جفا أهله هنا لن يعرفهم هناك. سألوه عن أحواله، فرد عليهم ببضع كلمات غامضة، تعمد أن تكون هكذا، بلا معنى واضح، حتى لا تصل أخباره إلى «سلوى».

لكن هذه الكلمات كانت كافية لأن يعرفوا أنه قد اشتغل سائق شاحنة ضخمة تنقل المؤن إلى الصفوف الأمامية للجيش العراقي، وهو يقاتل الإيرانيين، ومن بعدهم الأمريكان.

لم يكن «مشحوت» مؤمنًا بما يقوله صدام حسين عن صد الحرب الصليبية على بلاده، ولا بحديثه عن تحرير فلسطين، فصاحبنا لم يكن مواليا إلا لنفسه، كرشه وفرجه وقبلهما جيبه وزجاجات «عرق البلح» التي يعبها كأنها ماء نصف مثلج.

كان مأجورًا، يا ولدي، مرتزقا، مثل بعض من شاهدتهم وصافحتهم على قمم التلال أو عند السفوح الممتدة في بلاد بعيدة، وكنت بسذاجتك تعتقد أنهم أولياء الله الصالحين، وأنهم أتوا ليذودوا عن الإسلام ضد الشيوعيين الملاحدة الذين دفعوا دباباتهم وأطلقوا طائراتهم لينزعوه من قلوب الناس.

واحد من هؤلاء كان من قريتنا، لن أحكي لك عنه إلا حين نصل إلى بيته، لكن عليك فقط أن تعرف اسمه الآن ربما قابلته هناك في كهف أو تحت غبار المعركة، اسمه «حسن سرحان»، تذكر هذا الاسم جيدًا، وادفنه في رأسك لعلك تستعيده حين تريد.

«مشحوت» كان مثل «حسن»، الفارق بينهما أن الأول ذهب إلى مَن أجروه دون أن يعرف كم سيقبض؟ وما هي مهمته بالضبط؟ الثاني اتفقوا معه على كل شيء من هنا. ألف دولار في الشهر، ورشاش خفيف، وذخيرة مفتوحة، وثلاث وجبات في اليوم، وصحبة مع

المجاهدين في الدنيا، وجنة الخلد في الآخرة إن استشهد في ميدان المعركة، ولم يكن يعنيه إلا الظفر بحور العين في جنة الخلد.

وعدوا «مشحوت» هناك، بمرتب شهري لم يكن يحلم به، وقالوا له أيضًا إنها «القادسية الجديدة» ضد الفرس الروافض أعداء الإسلام، ثم قالوا له إنها «أم المعارك» ضد الغرب الحاقد.

كثيرون يدعون يا ولدي أنهم يحاربون باسم الله، ويقتلون باسمه. أنت واحد من هؤلاء، وأنا كنت من المنتظرين مثل «سلوى». هو زوجها وأنت ابني. فارق كبير بين الحالتين. الزوجة يمكن أن تخلع زوجها أو تطلب منه الطلاق، أما الابن فكيف ينخلع عن أبيه؟ كيف يمكن للدم أن يصير ماء؟ أنت من صلبي وفي كبدي، وأنا حملت إليك سمات أجدادك، أعطيتها لك من دون إرادة منك، لكنها فيك، لا تستطيع منها فكاكا، أما هي فلم تمنحه أحدًا من صلبه، وشكرت الله فيما بعد على أنها لم تحمل من هذا العابر الذي غاب.

يمكنك، يا ولدي، أن تطرق هذا الباب، وتصيخ السمع إلى صوت رقته المرارة لامرأة مكلومة، اسألها عن «مشحوت»، اذكر فقط اسمه أمامها ستجدها قد انطلقت تثرثر بلا حد، وتبوح بكل شيء، حتى ما لا تتوقعه منها. تتكلم بحرقة، وتدوس على الحروف، وفي عينيها دموع، هكذا حتى تستريح. وهكذا كنت أفعل أنا حين أتذكرك وأنت بعيد عني. أحيانا ألوم نفسي على أنني أهملتك إلى أن عششت هذه الأفكار في رأسك، وأحيانا أواسيها وأقول إنني تركت

لك الحرية لاختيار طريقك، ولا ذنب لي في أنك تركت الميادين الفسيحة البديعة، وتركت قدميك تدلفان إلى هذه التعاريج المظلمة التي يسكنها عفن مقيم.

«سلوى» لم تختر طريق «مشحوت»، هو الذي هجرها فجأة، غاب في صحراء العراق، ولم يعرف أحد خبره سوى رجل عراقي وحيد اسمه «أبو عدنان»، يعمل هو الآخر سائق شاحنة في الجيش، وجمعته جلسة مصادفة على مقهى في بغداد مع شاب من قريتنا، ظل سنوات هناك عامل تراحيل على باب الله. سأله «أبو عدنان» عن بلده، فذكر له اسم قريتنا، وعندها حملق الرجل فيه طويلًا ثم قال:

– هل تعرف رجلًا من بلدكم اسمه مشحوت؟

– هو من بندر المنيا، وتزوج امرأة من بلدنا.

– كان زميلي في الجيش.

– زميلك! كيف؟

– نعم، كنا ننقل مؤن الجيش إلى الخطوط الأمامية، سنوات، وظللنا على هذه الحال إلى أن ضرب صاروخ أمريكي شاحنته فتفحمت تمامًا.

– وأين دفنتم جثته؟

– لقي ربه، ولم يبقَ من جسده شيء.

العتبة السابعة

الأسود الرائع المنبوذ، الذي يميط الأذى من طريق أناس يوجعونه بجرمهم، تتحقق له الهيبة بفضل ورعه وأخلاقه، ومن أجل هذا يرمي كثيرون أحجارًا في بحيرة آسنة، فتهتز، ويتبعثر العفن تباعًا، ليأكله سهد الشمس، وموجات الريح، ويتدفق الماء النمير.

دعك من «سلوى»، واتركها لآلامها، التي لا نملك إلى تخفيفها سبيلًا، وتعال يا ولدي لننعطف قليلًا في الشارع الذي تطل فوهته علينا، ولنمشِ ثلاثين خطوة لنجد بيتا من الحجر، طويلًا كصاحبه، يوغل بين البيوت حتى يصل إلى الشارع الموازي، وله فيه باب آخر قصير.

البيت مقسوم إلى نصفين، النصف الأمامي للبشر، والخلفي للبهائم، جمال وجاموس وغنم وحمير. فرب العائلة رجل عصامي، ادخر القرش على القرش واشترى الأرض والأنعام.

لا يهمك بالقطع كل هذا، لكن ما يجب أن يهز نفسك ويجعل قلبك يرتج وينخلع من مكانه هو ما كان أهل قريتنا يصفون به هذا الرجل، ولا يتمهلون أمام تدينه العميق واستقامته واجتنابه أي شبهة تقربه من حرام.

الرجل اسمه «أبو سعيد» والصفة التي تلاحقه هي «كبير العبيد». نعم العبيد، بعد أربعة عشر قرنا من دخول الإسلام إلى مصر، لا يزال مسلمون ينظرون إلى واحد منهم على أنه عبد، ويصرخ في وجهه مَن يغضب عليه: يا أسود يا زربون، ويضع الكل بينهم وبينه مسافة، فلا يتزوجون من بناتهم، ولا يزوجونهم من بنات العائلات الأخرى. الجميع اتفق على هذا، حتى الغرباء الذين جاءوا إلى قريتنا وسكنوا أطرافها.

طالما سمعوا «إسماعيل» شيخ الجامع، وهو يحدثهم عن بلال الحبشي، مؤذن الرسول، كانوا يتباكون تحت المنبر، و«أبو سعيد» بينهم، ويتحدثون عن مآثر «بلال» وهم يكدحون تحت شمس الظهر، لكن كلامهم لا يفارق حناجرهم. يطير في الهواء ويتلاشى كأنه ندف من سحاب أجوف عابر، حتى السحاب يمكن أن تسقط منه قطرات تسقي النسل والزرع، أما هم فظلوا سنين لا ينتفعون بما يسمعون وما يعرفون أبدًا.

وكان على شيخ الجامع، وأبيك، وكل ذي عقل في قريتنا، أن يقضوا وقتًا طويلًا حتى اقتنعت قلة بما يقولون، فتزوجت «سمية» حفيدة «أبو سعيد» من شاب زين من عائلة «مكي»، وأحبت بنت من عائلة «السماعنة» شابًا من عائلة «أبو سعيد» وكافح سنين، حتى رضوا به، في النهاية. وانفتح الطريق بطيئا، لكنه انفتح، بعد أن أوصده الجاهلون قرونًا.

سيزيد عجبك يا ولدي لو علمت أن «أبو سعيد» هذا كان يحفظ نصف القرآن، ويرتله بصوت طلي حنون، وفي غياب شيخ الجامع كان الناس يقدمونه ليصلي بهم، لكن بعضهم كان يتذمر حين يقف الرجل بطوله الفارع أمام الصفوف، ويقول للمصلين: «استقيموا يرحمكم الله». أحدهم، وكان قصير القامة متأنفًا دومًا، رفع رأسه، وشمخ بأنفه ونفخ في وجه «أبو سعيد» وهو يستعد لإقامة الصلاة، ثم صرخ:

- على آخر الزمن العبيد يرفعون أصواتهم على أسيادهم.

وخرج من الصف، ثم خطف حذاءه القديم وانصرف من المسجد.

وعلى مصاطب السمر بالليل تأتي سيرة عائلة «أبو سعيد»، وينطلق وحش النميمة كاسرًا، ينهش يمينًا وشمالًا، فيتساءل الناس عن البنت بيضاء البشرة التي أنجبتها إحدى نساء العائلة مع أنها سوداء، وكذلك زوجها. ربما سمع هؤلاء من شيخ الجامع حديث الرسول: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، وعرفوا أن دساسة العرق تعني أنه ممتد لأجيال عدة، قد يغيب لجيلين أو ثلاثة ثم يعود بازغا إلى سيرته الأولى. ولا شك أن هؤلاء يحفظون عن ظهر قلب المثل الذي يقول: «العرق يمد لسابع جد». لكن كل هذا يتناسونه حين يكون الكلام عن «أبو سعيد» ويغمضون عيونهم عما قاله لهم

الأجداد من أن جدة الرجل نفسه كانت بيضاء، يسر بياضها الناظرين والعابرين، جاء بها زوجها من بلاد بعيدة، ناسها أعرف بالله من أولئك الذين ينكرون كل شيء ليرضوا أنفسهم المريضة.

عاش «أبو سعيد» يا ولدي مستباحًا لألسنتهم الحادة، لكنه كان يتسامى عن الصغائر، يسمع بأذنه الإساءة إليه فيبتسم، ويتمتم في سره: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»، ويمضي في طريقه صامتا يتلفت حوله على جوانب الشارع أو الجسر، فإن وجد قطعة زجاج مكسور يمكن أن تؤذي قدمًا صغيرة أو كبيرة، التقطها ووضعها في كيس يحمله حتى يذهب به إلى كومة المهملات خارج القرية ويلقيه هناك، وإن وجد حجرًا كبيرًا في منتصف الطريق يعترض المارة شمر عن ساعديه وراح يزحزحه حتى يستقر جانب الحائط، وإن لقي بقعة زلقة من ماء انسكب عليها يحفن التراب ويلقيه عليها حتى تجف خوفا من أن تنزلق قدم أحد فيها ويصيبه مكروه.

كان سيدهم حقا، يا ولدي، ومع هذا رآه العميان عبدًا. كثيرون طمس الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم غشاوة، وانتظروا أن يمد العارفون لهم أيديهم لينتشلوهم من الخرافات والجهل، وينقلوهم من الزمن القديم الذي تعيش فيه أفكارهم وأرواحهم، يقولون لهم إن العالم قد تغير، وإن الدين الذي يخوضون فيه، ويرددون علاماته كالببغاوات يجعل الناس سواسية كأسنان المشط.

أمثالي تركوا القرى وراحوا يبحثون عن موضع لأقدامهم في زحام المدينة، وأمثالك يا ولدي تركوا بلادنا كلها وقالوا: الإسلام ينادينا في بلاد غريبة. أتتوهمون أنكم تدافعون عن الإسلام هناك، وتتركونه هنا عرضة لأفكار جاهلية تنهش في لحمه فينزف ويتساقط ويبقى في النهاية هيكلًا عظميًا يقف في مهب الريح، أو جلدًا منفوخًا على خواء.

ألم يكن أجدر بك أن تأتي للجهاد في قرية أبيك؟ لو فعلت ذلك لرفعتك فوق رأسي أو وضعتك في عيني، وربما كنت قد تركت كل شيء وجئت خلفك لأشاركك في مهمتك المقدسة، ودرنا على عتبات البيوت، كما ندور الآن، نوزع ما لدينا على رؤوس الناس، ولا ننتظر منهم أجرًا.

هنا يا ولدي ما يستحق الجهاد، لكنه ليس ذلك الذي تلمع فيه سيوف وخناجر، أو تمرق فيه حمم لهب وتدوي انفجارات وترتفع أعمدة الدخان لتلوث صفحة السماء، إنما هو الجهاد بالكلمة الطيبة. لا تسخر من قيمة الكلمات، فـ«في البدء كان الكلمة»، ونحن لم نرَ الأنبياء، إنما بقيت لنا كلماتهم تسري في الأزمنة والأمكنة، وتأخذ بألباب وأفئدة الأتباع. إنها مفارقة، يا ولدي، مثلك الذي تخرج في كلية الهندسة جامعة القاهرة، يقلل من قيمة الكلمة، بينما سائق عربة ربع نقل متآكلة الحواف كتب عليها «الدنيا كلام»، جملة مكتوبة

علـى عجل وبخط ركيـك، تأملتها ذات يوم فوجدتها تشـع بحكمة عميقة. لقد قال الرجل كل شـيء، وهذا ما لا يصل إليك، ويدعوني للأسى.

كان يمكنك أن تأتي لتدور على بيوت هذه القرية وتقول لناسها: «أبـو سـعيد» مثلكم، بـل أفضل منكـم؛ لأنه أحسـنكم أخلاقا. كان يمكنك أن تغرف من بطون الكتب القديمة وتسـكب في آذانهم، أو تبحـث عن تأويلات لآيات اللـه تنفع لزماننا، وتقول لهؤلاء الجهلة الذين يقسمون الناس إلى أسياد وعبيد: كفى، هذا ليس من الإسلام في شيء.

لكنك تركت الناس هنا، وحملت أمتعتك وهربت إلى ما هو أهون. نعم هو الأيسر والأسهل، أن تحمل بندقية وتطلق الرصاص، أن تختبئ في قعر كهف من غارات الطائرات أهون بكثير من أن تأخذ على عاتقك أن تعلم الناس وتغيرهم، وتبدلهم من حال إلى حال. إنها مهمة الأنبياء والأولياء، التي لم تألفها ولم تسعَ إليها أبدًا وليس مهمة المحاربين وقطّاع الطرق ورجال العصابات.

ستقول لي:

- ولماذا لم تفعل أنت ذلك؟

وسأرد عليك:

- فعلت ما في وسـعي قبـل أن أرحل إلى المدينـة وراء رزقي، ولم أزعـم يومًـا أنني نذرت نفسـي للجهـاد مثلـك. ربمـا أجاهد في عملـي، وفـي حديثي إلى النـاس بطيب الكلام، لكننـي أفعل هذا تلقائيـا، بعيـدا عن مزاعـم أمثالـك، فالتدين الحقيقـي، يا ولدي، يذوب فـلا تراه، ثم يتجلـى فيملأ عينيـك، دون أن يكون صاحبه في أي حاجة إلى تذكير الناس كل لحظة بأنه يصلي ويزكي ويحج ويتصدق ويلهج لسانه بالتسابيح.

لـو أن «أبو سـعيد» علـى قيد الحيـاة يا ولدي، كان مـن الممكن أن تسـأله عمـا فعلته مـن أجله. كنت غلامًـا، غير مسـموع الكلمة، ومـع هذا وقفـت إلى جانبـه، ودافعت عنـه، ورددت علـى اغتيابه. أتذكـر ذلك اليوم الذي جلسـت فيه على المصطبة العريضة أشـرح للفلاحيـن المولعين بالنميمة قانون «منـدل» للوراثة، كي أثبت لهم أن البنت البيضاء يمكن أن تنجبها المرأة السوداء من زوجها الأسود دون أن تكـون قـد خانته أبدًا كما يكذبون عليها، إن كان جد أو جدة قديمة في العائلة بيضاء البشرة.

وفي اليوم التالي قابلني «أبو سعيد»، فربت كتفي وابتسم قائلًا:

- بارك الله فيك يا ولدي.

فنظرت إليه بعينين دامعتين وقلت:

- لم أفعل سوى الواجب.

فهز رأسه وقال:

- دعهم يخوضون في عرضنا، والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة.

بعد أن مات رآه رجال كثيرون ونساء في أحلامهم، يرتدي جلبابا أبيض وعمامة خضراء، وجهه مضيء، وجسده فارع، وفي عينيه ألق وامتنان. كان يمشي وحده ويميط الأذى عن الطريق، وفي يده عصا طويلة يهش بها على جمع غفير يجرون أمامه لاهثين، أقدامهم حافية يأكلها الحصى، وعيونهم دامية يهزها الخوف، وألسنتهم ملقاة على صدروهم يحط عليها الذباب.

العتبة الثامنة

الحائر بين نصف اسمه، وكل رسمه، يرق كالنسيم ثم يهيج كالعاصفة، وينقل قدميه بين أرقام مبعثرة، ويجلس ليلملمها في حضنه متوهما أنه يمتلك كل شيء، لكن يولد من صلبه من يعلمه أن العلم لا يجافي الجمال.

بعد بيت «أبو سعيد» يمكننا، يا ولدي، أن نستريح هنا قليلًا أمام بيوت أقيمت على أطلال حديقة صغيرة، كنا نتسلل إليها لنلعب بين أشجارها الفيحاء، ونخطف من ثمارها الناضرة أحيانا، ونجلس فوق بقع الشمس التي تزركش ظلالًا وارفة، لنتابع العصافير وهي تقافز بين الأغصان، وتحط على العشب تلتقط القش والحب ثم تعلو مزقزقة بموسيقى تطرب أفئدتنا الغضة.

أحدنا، واسمه «عاطف الزنط»، كان الأكثر جرأة على خطف الثمار؛ لأن أمه كانت تهلل له حين يدخل عليها وفي حجره ثمرات من المانجو أو البرتقال، بينما كانت جدتك تعاقبني إن فعلت هذا، وكنت أكتفي بالفرجة، أو بثمرة واحدة آكلها وأمضي، بعد أن أمسح فمي جيدًا، حتى لا يبقى عليه من آثارها شيء.

هذا الجريء سار في طريقك يا ولدي، لم ينضم إلى جماعة مثل «أسعد»، بل غزاه التزمت تدريجيا، بعد قصة حب فاشلة لزميلته في

كلية الهندسة. هو عبقري في الفيزياء والرياضيات، يذهلك تميزه فيهما بقدر ما يخجلك ويفجعك تشدده إن جاء الكلام عن الدين أو الفن.

أرى في عينيك اهتماما أشد بحكاية هذا الشاب أكثر من كل الحكايات التي مضت. هل لأنك ضحية إخفاق عاطفي مثله، أم لأنك أيضا كنت متميزا في الفيزياء قبل أن تنسى كل شيء بين الصخور العالية المدببة، والرمل الساف، ونار الحرب الموقدة.

جئت يومها وفي عينيك كآبة، وشفتاك مقددتان، وخطان أسودان يتدليان على خديك من فرط البكاء. فجعني منظرك فجريت إليك، وأخذتك في حضني، وهمست في أذنك:

– ما لك يا قرة عيني.

وضعت على قلبك حجرًا ضخمًا، وأبيت أن تبوح لي وأنا أبوك، وظننت أن كبرياءك ستنجرح إن قلت لأقرب الناس إليك ما يضنيك. حتى أمك، التي عاشت ميتة من فرط شرودها الطويل في غيابك، لم تقل لها شيئا. وأختك التي كانت تربت كتفك وتمسد لحيتك، رغم أنها أصغر منك سنا، احترت في صمتك وميلك إلى العزلة، وطالما ابتسمت في وجهك، وسألتك:

– متى تُخرج رأسك من بئر المعادلات الرياضية وقوانين الفيزياء؟

سارت هي في طريق مختلف، رغم أنها درست «الاقتصاد»، إذ إنهم تبعدها الأرقام عن رعاية وجدانها، فقرأت بنهم كل الروايات وكتب الفلسفة والتصوف التي تحفل بها مكتبة أبوك، وها هي تعمل محررة صحفية، وتكتب عن أعقد المسائل الاقتصادية بلغة فياضة، وتقول دومًا لي في ساعات الصفاء: «مشكلة الرأسمالية أنها جعلت الإنسان خادمًا للمال، فهو مجرد عنصر من عناصر الإنتاج، أما أنا فأنطلق من أن الاقتصاد خادم للإنسان، فهو الغاية، وكما أن البطن يجب أن يشبع فالروح أيضًا في حاجة إلى أن نروي ظمأها»، تقول وأنا أكاد أطير فرحًا من كلماتها، ويهتز قلبي لفتاة جميلة أنقذت نفسها من السقوط في بئر الأرقام.

أما «عاطف»، الذي نحن أمام بيته الآن، فقد دفن رأسه في هذه البئر حتى صار أستاذًا جامعيًا في الفيزياء بجامعة الإسكندرية، لكن ذهنه لم تبحرك خطوة واحدة نحو فهم الحياة. ورغم قامته المديدة وعينيه الخضراوين الواسعتين، لم يرَ أبعد مما أوحت له به المعادلات المضبوطة، فظن أن كل شيء على شاكلة المسألة الحسابية البسيطة التي تقول: 1 + 1 = 2.

هكذا كنت أنت يا ولدي، تعتقد أنه لا يوجد في الدنيا سوى خيار واحد، ورأي واحد، وطريق واحد، وحين دعاك زميل لك في الكلية إلى أن تزور الشيخ، وتكررت زيارتك عدت لتقول ذات يوم:

– عرفت اليوم طريقي.

وجدت في كلام الشيخ ذي اللحية الشهباء ما يروي ظمأ روحك، التي صارت صحراء جرداء لخصامك كتب القانون والأدب والفلسفة وعلم النفس والاجتماع التي تحتشد بها مكتبة أبيك. كنت أسحب يدك وأذهب إلى الأرفف العامرة بنفائس العلوم الإنسانية، وأقول لك:

- أضف إلى عمرك أعمارًا، واغرس شجرتك المعطاء في بستان لا حدود لجماله.

لكنك كنت تبتسم، وتبتعد في هدوء. وفي يوم صدمتني حين قلت لي:

- لو اختفى الشعر من الحياة، وخرس الغناء، وغارت الموسيقى، فلن ينقصها شيء.

هي العبارة نفسها التي سمعتها من «عاطف» قبل سنين طويلة وهو يمضي بنجاح مبهر في كلية الهندسة، حين لمح في يدي ديوان شعر. كان يكلمني عن أمر لا أتذكر ما هو الآن، لكنني كنت لاهيًا عنه، مأخوذا بالصور الجميلة واللغة العذبة، والحزن الشفيف.

ضحكت يومها وقلت له:

- أيخرج هذا الكلام من رجل يحب؟

فامتقع لونه، وأنكر مثلك، وقال:

- ليذهب الحب إلى الجحيم، فأنا لست في حاجة إليه.

كان يكذب على نفسه، ويواري ضعفه وخيبته، مثلما فعلت أنت معنا جميعًا، أنا وأمك وأختك التي منحتك الفرح، وأورثتها الكدر.

وما قلته له يومها أعدته على مسامعك، لكنك كنت قد صببت في أذنيك رصاصًا وتصلب، أو شمعًا وتجمد، وأغلقت عني بصيرتك، فلم يجد كلامي إلى نفسك سبيلًا. وكما أمسكت بكتفي «عاطف» أمسكت بكتفيك وقلت لكما في زمنين متباعدين على قدر كدحي ووجعي وآمالي وعلمي:

- خيال الأديب يسبق اكتشاف العالم بقرن على الأقل، وما تدرسه الآن من اختراعات وعدنا به شعراء وروائيون منذ سنين طويلة.

لسعه كلامي كما لسعك، لكن كليكما ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ومضى غير عابئ بما سمع.

لم يطربك شيء يا ولدي، ولم يهزك حتى صوتي الجميل وأنا أقرأ القرآن، والذي شهد له كل من سمع تلاوتي وترتيلي، وكنت تختلي لتستمع إلى شرائط كاسيت معبأة بقذائف من كلام، تطلقه حنجرة معطوبة، عن عذاب القبر، والناس الذين عادوا إلى الكفر، ونواقض الوضوء، وفريضة الجهاد، التي اختزلها في حمل السلاح والولاء والبراء، الذي صنع جدارًا خشنا عزلك عن بقية الناس.

لكن الحق يقال إن عقل «عاطف» إن كان يشبه عقلك، فقلبه لا يشبه قلبك. هو لا يزال إلى الآن حريصا على أن يصل رحمه. يسيح في بلاد الله، ويعود ليعطيهم، على قدر استطاعته. وقد بلغ كرمه معهم إلى حد أن صار حديث الناس. أما أنت فقد قسا قلبك، واستبدلت بالدم في عروقك ماءً آسنًا. لم أنتظر، ولا أمك وأختك كذلك، منك شيئا، إلا ابتسامة وكلمات تطمئننا عليك، أو تشعرنا بأنك منا ونحن لك.

لم أكن عاقا لوالديَّ حتى تأتي أنت هكذا، لكن ربما كنت ابتلائي الذي صبرت عليه. لا أعرف ربما سخرت من «عاطف» فجئت أنت، وسخر هو مني فجاء ابنه قارضا للشعر، وكما جفيتني أنت جفا هو أباه.

تعال يا ولدي لنطرق باب هذا البيت، الذي حط الزمن على جدرانه، لعلنا نجد أحدا نسأله عن «الدكتور عاطف»، هكذا صار اسمه، ولا يقبل أن يناديه أحد باسم غيره. أنا لم أقابله منذ زمن بعيد، تقطعت بيننا السبل رغم ما عشناه سويا من مسرات أيام الطفولة الغضة. قد نجد أحدًا من أبناء أخيه أو أخته، سنسأله عن رقم هاتفه، وسأطلب منه أن يجلس معك. من يدريني لعله راجع الكثير مما كان في رأسه، ربما يفاجئنا بإنشاد قصيدة أو إسماعنا سيمفونية لبيتهوفن أو معزوفة للقصبجي، وربما يحكي لنا عن آخر رواية قرأها، ويشكو لنا من الفتنة التي يحدثها بيننا المتسربلون بالدين وهم يسعون بنهم نحو الجاه والمال والشهرة.

من يدرينا، يا ولدي، أن يكون ابنه هو، الذي سمعت أنه صار شاعرًا، قد غيره، مثلما زدت أنت من ثقتي في الطريق الذي اخترته حين رأيت عاقبة الطريق الآخر الذي مضيت فيه، وأخذك في لحظة من القاهرة إلى جدة ومنها إلى بيشاور جوًّا، ومنها إلى كهوف تورا بورا برًّا، ثم إلى الصومال بحرًا، فمنها إلى السودان، وأخيرًا إلى ليبيا، عبر الصحراء الوسيعة، التي هرعت إليها، ومنها أرسلت لي خطابك الوحيد، المكتوب على مظروفه: «يصل ويسلم ليد فهمي عبد الرحمن المحامي».

ومهما جرى لـ «عاطف» من تغير كان أو بقي على حاله، سيظل دومًا من ذاكرتي ليشرح لي بعض ما أنت عليه، وإلام أفضى بك الاقتصار على معادلات الرياضة، والنظر إلى الحياة على أنها طريق واحد، والبشر على أنهم أنماط متطابقة، كأنهم قطع صابون خارجة للتو من المصنع، أو أواني فخارية صبت في قالب واحد، وتركت تحت صهد الشمس لتجف، فلا تميز أحدها عن الآخر.

لكل هذا أتيت لك في رحلتنا القصيرة من القاهرة إلى هذه القرية الضامرة بكتاب مختلف، دسسته في حقيبتي، دون أن أخبرك بهذا، ويحدوني أمل عريض في أننا حين ننهي جولتنا بين الشوارع المترعة والحارات التي تنام حوائطها على بعضها البعض، سأجد قلبك قد انشرح، وعقلك قد انفتح، وتقول لي بملء فيك:

– أعطني زادي الجديد لأعرف دنيا جهلتها.

العتبة التاسعة

جنوبي صغير، تحط الصحراء على رأسه، وتتناثر فوقها أحراش عفنة، تتساقط يابسة بمرور الأيام على كتفين عريضتين، ترتفعان وتملآن جلبابًا فضفاضًا، يهفهف بين وردة وعود ريحان، بعد أن تنغرس القدمان في الأرض الجديدة، وتنبت الجذور المقطوعة.

تقـدم يا ولدي، وخذ حذرك من هـذه اللجة المتبقية من آثار ليلة مطيـرة، وابتعد عن هـذا الجمع من الكلاب المتشـابكة في موسـم التسافد. مد كفك اليمنى وتساند على هذا الحائط الحجري العتيق. لـن نمشـي طويلا، فعلى بعـد خطوات هنـاك البيت الـذي نقصده. هـو بيت مهاجر مثلك، هـارب قديم من الفقر والجهـل والغربة في الوطن.

إنـه بيت «عطا الله»، الذي جاء إلى قريتنا وهو طفل صغير يرعى القراع في رأسه، وجده العمدة «حيدر» أثناء رجوعه من البندر ملقى بجوار محطـة قطار قرية «صفط اللبـن». كان جائعًا وحزينًا، يتلفت بعينيه يمينًا ويسـارًا في لهفة لعل أحدًا يمد إليه يده. ليلتان مرّتا عليه ولا مجيـب، حتـى توقف أمامه بغل هائل يجـر «الدوكار» المذهب العريض، وامتدت منه يد سمينة تطوق معصمها ساعة فضية، وجاءه صوت فخيم:

- تعالَ يا ولد.

وجرى إليه. وقف أمامه ورفع رأسه وقال بعينين دامعتين:

- نعم يا بيه.

أشار إلى رجل يركب حمارًا عاليًا، ويسير خلف «الدوكار»، وقال له آمرًا:

- اركب وراءه.

وجرى نحو الرجل، فتعثرت قدم الولد في طرف جلبابه الممزق البالي، فانشق حتى صدره، لكنه لم يعبأ بما جرى له، وقفز خلف الرجل، وسار الركب نحو القرية.

في اليوم التالي وجد الناس «عطا الله» في قريتهم، بجلباب نظيف ورأس ملطخ بلون أزرق قاتم، زحف قليلًا إلى جهته. كان يمشي حذرًا إلى جانب «دوار العمدة»، يطالع الوجوه والبيوت ويلوذ بغربته.

يومها كنت أنا و«أسعد» نسوق القطيع خارجين نحو الحقول البعيدة، شاورنا إليه فجاء متثاقلًا، وقف في محاذاتنا، ورطن بلهجة صعيدية قحّ، انتبه إليها «أسعد» فسأله:

- من أي بلد أنت؟

- من فرشوط.

- وأين فرشوط هذه؟

- لا أعرف.

- لا تعرف بلدك!

سكت قليلًا ثم رد:

- بلدي الآن بلدكم.

وكان له ما أراد، فقد أخذ «عطا الله» بمرور الأيام ينخلع من ماضيه في «نجع العسيرات» بفرشوط، ويصنع لنفسه حاضرًا في قريتنا.

بعد أيام وجدناه يمشي وراء قطيع الجاموس، الذي يملكه العمدة، ويسوقه نحو حقله الوسيع. يربط كل جاموسة إلى وتد، ثم يلقف المنجل المدسوس إلى جانب جذر شجرة الكافور العالية، ويتوغل بين أعواد البرسيم اليانعة، يجلس القرفصاء، ويضرب منجله بين الجذور الطرية، ويكوم ما حصده وراءه، فلما تتوالى الأكوام، يحملها على كتفه اليمنى، ويلف ذراعه حولها، ويسير نحو البهائم الجائعة.

تفانى في خدمة سيده فرضي عنه. كساه أربع جلاليب مرة واحدة، وملابس داخلية، و«شبشب» من الجلد، ولف رأسه المعطوب بشال أبيض ناصع، فبدا للناس أكبر من سنه بكثير. وتعامل معه الرجال على أنه رجل، وناداته النساء لتسمعن لهجته الغريبة على قريتنا، سألنه عن بلده وأهله، لكنه كان بخيلًا في إشباع فضولهن.

ولما شبَّ عن الطوق، اشترى له العمدة بيتًا صغيرًا، وزوَّجه من خادمة تدعى «جمالات»، تربت في بيت العمدة الكبير، فلما ورث «حيدر» المنصب كلفها برعاية خنان الدجاج والبط والإوز والديوك الرومي.

وفوق سطح بيت «عطا الله» صنعت خنانها الخاصة، وكان «عطا الله» يحمل البيض في سلة كبيرة، ويذهب كل يوم اثنين إلى سوق البندر، يبيع ما لديه، ويشتري ما يكفيهما، ويدخر الباقي، فلما تراكم في جيبه مبلغ مناسب، اشترى ستة قراريط من الأرض، وبعد أسبوع ولدت «جمالات» له بنتا سمراء أسماها «هاجر»، ثم ولدًا أسماه «رزق»، جاء بعد ثلاث سنوات من ميلاد أخته.

هاجر «عطا الله» مثلك يا ولدي، وصنع جهاده. الجهاد الذي نسيته أنت، واختصرته في هجران بلدك وأهلك وحمل السلاح. هجرته كانت من نجع إلى قرية، وهجرتك أنت كانت من دولة إلى دولة، وتوالت الدول، واختفت في عينيك الحدود، فوطنك هو ما في رأسك من أفكار، وأينما كانت فكرتك كانت دولتك، وإن شئت أن تحدد لك خريطة قلت: «من غانا إلى فرغانة»، وقسَّمت العالم إلى فسطاطين: دار إسلام فيه إخوانك، حاملو السلاح والأفكار القديمة، ودار حرب، وهو بقية العالم. ألم يقل هذا أميرك «بن لادن»، وأنت أمَّنت وراءه، وصرخت من أعماقك: لبيك يا سيدي.

الذي هاجر من نجع إلى قرية داخل بلدنا العريق، ها هو قد أقام بيتا على التقوى والفلاح. رأيته منتظمًا في الصلاة، كان يسبقنا جميعًا إلى المسجد، بقدر ما يسبق كل الفلاحين إلى الحقل. وكان وفيًا لمن آواه، رغم أنه لم يكن أباه. ظل يخدمه بتفانٍ منقطع النظير، فلما مات، سار خلف جنازته يبكي كطفل تائه، وتقدم إليه الناس ليعزوه ويربتوا كتفيه، وهو رجل ملء هدومه، تغلب على أيامه وأحزانه ومرضه المخزي.

ما لا تدريه، يا ولدي، أن «عطا الله» ربَّى ابنته وابنه على أفضل ما يكون. البنت تخرَّجت في كلية الآداب، وبعد أن اجتمع شمل أبيها مع أهله الذين هرب منهم أيام طفولته، تزوجت قريبًا لها، يعمل مهندسًا وسافرت معه إلى الخليج. والابن صار طبيبًا، وكافح حتى أصبحت له عيادة وسيعة في المدينة، ويُقال إنه يأتي مرة واحدة كل شهر ليعمر بيت أبيه، الذي خلا بوفاة «عطا الله» وزوجته.

«رزق» اقترب مساره التعليمي من مسارك، يا ولدي. معادلات كيميائية، وقوانين رياضية، ورسوم ومقاطع تشريحية من جسد الإنسان. مقاطع تتطابق، فلكل منا قلب في الجانب الأيسر من صدره، وكبد في الجانب الأيمن من بطنه، ومخ في رأسه، الملامح والتقاسيم والحشايا، الجذع والأطراف، كل منا لديه منها.

لكن «رزق» فهم أن عقول البشر وأحوالهم مختلفة، فالألم واحد والأسباب مختلفة، والبهجة واحدة والسبل إليها عديدة.

وأعتقد أنك تتساءل الآن: كيف فهم هذا؟ ولِمَ نجا من السقوط في فخ معادلتك العتيقة: 1 + 1 = 2؟ وسأجيبك أنا قبل أن تتحير: الأمر بسيط، يا ولدي، لقد ورث «رزق» مكتبة العمدة «حيدر». أخذها وهو في المرحلة الثانوية، هكذا عرفت من أهل البلد؛ لأنني غادرتها و«رزق» هذا طفل صغير.

كان يذهب مع أمه وهو صغير، حين كان العمدة على قيد الحياة، تمسك هي «المنفضة» لتمسح أي غبار حط على كعوب الكتب، ويتمتع هو بألوانها. أحيانا يصعد على كرسي، ويمسك أحدها، ويحملق في الأغلفة الملونة. تنتبه إليه «جمالات» فتخطف منه الكتاب خوفًا من أن يمزقه، فيجلس محسورًا.

وحين وصل إلى المرحلة الإعدادية، استأذن «عطا الله» من العمدة أن يستعير ابنه كتابًا، فابتسم وقال له:

- ليس لديَّ مانع، لكن عليه أن يعيده بعد قراءته.

وهكذا اعتاد «رزق» أن يستعير كتابًا كل أسبوع، أثناء إجازة الصيف، فلما مات العمدة، طلب «عطا الله» من الست أرملته أن تسمح لابنه بأن يواصل ما بدأ، فهزت رأسها وقالت:

- يمكنك أن تنقلها كلها إلى بيتك.

خرج «عطا الله» من عندها وهو يكاد يطير من الفرح، وذهب إلى النجار وطلب منه أن يصنع مكتبة لابنه، وخصص لها جدارًا من صالة البيت.

ربما يكون قد تركها في مكانها، ولم ينقلها إلى شقته في البندر، ولو طرقنا الباب يا ولدي وفتح لنا أحد في هذا البيت، سيكون أول ما تقع عليه عيناك هو تلك المكتبة البسيطة، التي صنعت لمن حازها مصيرًا جميلًا.

في بيتنا مكتبة أكبر من هذه بكثير، طالما حاولت أن أجذبك إليها بلا جدوى. حتى كتب العلوم البحتة التي تميل إليها أحضرتها، وقلت لك:

- أول كلمة في القرآن: اقرأ.

لكنك اكتفيت بالقشور التي درستها في المرحلتين الثانوية والجامعية، واعتقدت وتصرفت دومًا على أنك قد أوتيت من العلم ما يكفي، رغم أنك تردد ليل نهار أن تعلُّم الدين فرض عين. وأتيت لك بكتب عن الإسلام، عقيدة وشريعة، فهجرتها وقلت لي:

- أمرني شيخي ألا أقرأ إلا ما يقرره لي.

وحين صرخت في وجهك:

- تعصي أباك وتطيع شيخك.

تركتني وخرجت من البيت، وغبت ثلاثة أيام، ولم أجد إليك سبيلا، فطويت حزني على حزن أمك وأختك، وجلسنا ننتظرك في لوعة وأسى. وحين رجعت اشترطت للبقاء في البيت أن أتخلص من كتب علماء وصفتهم بأنهم منحرفون، أو هكذا وصفهم شيخك، الذي يردد الكتب القديمة كببغاء قدير. يومها حزمت الكتب في كراتين، وحملتها إلى شقتنا القديمة المغلقة.

ومع هذا لم تبقَ معنا، سرعان ما خرجت من دون استئذان، لنعرف بعد شهور أن أتباع شيخك قد أخذوك معهم إلى جدة. ومن عاش معك أسبوعين هناك عاد وقال لنا:

- تركته يحزم أمتعته البسيطة ذاهبًا إلى «بيشاور».

عاد هو من منتصف الرحلة، شيء أدركه، أو إلهام أشرق في رأسه، فتذرع لهم بحجة انطلت عليهم، ثم عاد إلى حضن أمه وأبيه، أما أنت فقد أعطيتني وأمك ظهرك، ونقلتك طائرة أخرى إلى حيث النار والدم والغربة الموحشة.

العتبة العاشرة

المسكين الذي يتغرب سابحًا في بحار الرمل والحصى، ويدع أزهاره جائعة، تجف وهي ملقاة إلى جانب جدران سوداء محنية، والبطون التي تئن فارغة لا تجد سوى العبد الصالح ليملأها، فينفتح طريق وسيع لما يجود به الخيرون، فيذهب الجوع، وتكبر الأجسام، وتملأ عيون مَن كانوا لا يرونها أبدًا.

أتتذكر، يا ولدي، البقعة الجافة الوسيعة التي قلت لك إنها كانت ترعة يعوم بها الإوز عند بيت «سليم السويركي»؟ أراك تهز رأسك. إذًا تتذكرها، وعليها، لو مشيت خطوات إلى الشرق من بيت «عطا الله» ستجد بقايا هذه الترعة لا تزال جارية، فإن سرنا فوق ترابها اللدن سنصل إلى بيت «أبو سريع» الذي رأيته في الزمن البعيد يقف عاجزًا بحوائطه الطوف وسط بيوت أعلى، مستوية الجدران.

ولهذا البيت حكاية تشيب لها الرؤوس، إن سمعتها أنت ستنكرها، لأنك لا تعتقد في كرامات الأولياء. تردد آية الكرسي ليل نهار دون أن تتوقف عند قول الله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾. الله يقول إذًا إنه قد يمنح بعض عباده المخلصين القدرة على الإحاطة ببعض الغيب، لكنك - كشيخك - تنكر هذا. سمعتك يومها تتحدث عن البشر الذين وهبهم الله طاقة جسدية

جبارة، ومع هذا لا تريد أن تفهم أن هناك من وهبهم ربهم طاقة روحية هائلة.

والغريب أنك ذهبت وراء الذين حشدوا أمثالك إلى القتال، بعد أن صدقت كلامهم، عن الرجال الذين يرمي الواحد منهم حفنة رمل على الدبابة السوفيتية فتنفجر، وتصير كومة تراب، تذروها الريح التي تزمجر بين فجاج التلال وعلى فوهات الكهوف العميقة.

قبل سفرك بأيام وجدت في يدك كتابًا يتحدث عن معجزات المجاهدين، وقلت لك يومها:

- ربما هي شائعات لجذب الشباب كي يجري بكل كيانه لينال شرف خوض المعركة التي يعدونها مقدسة.

يومها لذت بالصمت، حتى ظننتك قد اقتنعت، حتى فاجأتني:

- ساق الله طيرًا أبابيل ليحمي بيته من جيش أبرهة الأشرم، وأنزل ملائكته لتقاتل إلى جانب المسلمين في موقعة بدر، فلمَ أستغرب أن يتحول الرمل في يد المجاهدين إلى نار حارقة.

لم أجادلك يومها، وقلت لك:

- كل شيء جائز، وغدًا ستظهر الحقيقة.

لم أكن أدري وقتها أنك تخطط لكي تقف على الأمر بنفسك. رحلت لتعرف بالتجربة، وتركتني لأعرف هنا على طريقتي وأنا

أتابع صراع المجاهدين السابقين الضاري على السلطة بعد رحيل المحتل.

ربما البعيد لا يعرف جيدًا، لكنني كنت قريبًا من حكاية «أبو سريح» وأعرفها كما رواها آباؤنا وأمهاتنا، بعد أن عاينوها بأنفسهم، واهتزت لها قلوبهم، وارتعشت الدموع في عيونهم، وهتفت أعماقهم لقدرة الله، التي وهبها لعبده الصالح.

هذا العبد الصالح كان اسمه الشيخ «عمران»، والذي طالما عبر إلى قريتنا قادمًا من بلدة شرق النيل ليقيم الحضرات الصوفية، حيث الإنشاد الرائق والألسنة الرطبة بذكر الله. كان يأتي ومعه مريدوه قبيل صلاة المغرب، يذهب إلى الجامع ويؤم الناس، ثم يعود بهم إلى بيت من دعاهم، ليأكلوا من الذبيحة التي نحرت على شرفه.

كانت ليلة الذكر في بيت «أبو سعيد»، بعد أن دخل ابنه الأكبر على عروسه السمراء ممشوقة القوام. فُرشت الحصر العريضة، ووُضعت الطبالي المتينة، ورُصت عليها صحون اللحم والطبيخ والأرز وشرائح الطماطم، وأطباق اللفت المخلل، وحزم الجرجير، وقبصات من البتاو الساخن الخارج للتو من الفرن.

جلس المريدون حول الطبالي، ووقف الشيخ عند طبليته التي تنتظره في صدارة الوليمة، والتفت حوله، ثم أنصت بإمعان، وهو مغمض العينين، وأشار بيده إلى الجالسين، فأطرقوا صامتين. وبدا

للجميع وكأنه يسمع هاتفًا من بعيد، وهو يهز رأسه، ثم ضرب كفًّا بكف، وصرخ:

- اللهم أغث عبادك.. اللهم أغث عبادك.

ومال يا ولدي على الطبلية المستديرة، وأمسك قبصة سميكة من البتاو، ثم قال:

- هاتوا صينية.

وجرت زوجة «أبو سعيد» إلى الداخل وجاءت في يدها بما طلب، فوضع الشيخ البتاو، وأخذ صحونا من كل أصناف الطعام، وحمل الصينية، وخرج إلى الشارع. وقال له «أبو سعيد»:

- عنك يا مولانا.

لكن هز صدغيه رافضا، ومضى في طريقه. ومشى المريدون و«أبو سعيد» ورجال من قريتنا خلفه. وصل إلى نهاية الشارع ثم انعطف يسارًا إلى جانب الترعة، قبل أن تجف، حتى وصل إلى بيت «أبو سريع»، وضع الصينية على الأرض، وطرق الباب في أدب ووقف ينتظر. مر وقت غير قصير، ثم فتحت زوجة «أبو سريع» وهي تمد طرحتها فوق رأسها. فلما رأته أنار وجهها ببهجة، وهتفت:

- سيدنا جاء لنا بنفسه.

وحين لمحت الصينية الراقدة أمام الباب ضحكت عيناها، وقالت:

- تفضل يا شيخنا.

فابتسم لها، وانحنى، والتقط الصينية، ومدها إليها، وقال:

- خذي، أطعمي عيالك.

وأدار ظهره وعاد إلى بيت «أبو سعيد».

ستسأل يا ولدي عما فعله الشيخ، لماذا غضب؟ ولماذا حمل الطعام إلى هذا البيت البسيط؟ وقد سألنا مثلك آباءنا وأمهاتنا حين حكوا لنا هذه القصة ونحن نرتع في طفولة بريئة. وقالوا لنا أيامها إن زوجة «أبو سريع» اعترفت لجاراتها بعد يوم من صينية الطعام الدسم التي حملها الشيخ إلى بيتها، أنه لم يدخل جوف أولادها أي زاد منذ ثلاثة أيام، وكانوا يئنون من فرط الجوع.

ونظر «أبو سعيد» إلى الشيخ وقال في أسف:

- ليس عن بخل يا مولانا، إنما هي انعدام البصيرة.

فربَّت الشيخ كتفه وقال:

- أدري أنك لو عرفت ما قصرت، أيها الرجل الطيب.

لم تكن في بيت «أبو سريع» وقتها سوى الزوجة وأبنائها. أتدري لماذا يا ولدي؟ لأن الأب كان في غربة. لم يجرِ مثلك وراء الدم

والنار، إنما وراء الخبز والملح. كان قبلها بأيام قد حمل على كتفه كيس بلاستيك، به بعض أغراضه البسيطة، ورحل مع الراحلين إلى ليبيا.

وغنَّت زوجته بعد ساعات طويلة من سفره:

«خطَّى السلك الليبي ... يا مين يجيب لي حبيبي

خطى السلك يا ناري ... يا مين يجيبه جاري»

وحين كانت هي تغني في دارها الخفيض كان هو يعافر في صحراء ممتدة بين «السلوم» و«مساعد»، برفقة خمسة رجال من قريتنا، زادهم قليل، وجهدهم وفير، وآمالهم مفتوحة على رزق ينتظرهم هناك كعمال تراحيل مخلصين.

حين دخلت أنت الأرض نفسها، لم يغنِّ لك أحد، بل إن أهلك الأقربين كانوا لا يعرفون عنك شيئًا، إلى أن جاء خطابك الأول والأخير. كانت رحلته غير رحلتك، لكن انتظار الموت قسمة مشتركة بينكما، أمثال «أبو سريع» يخشون دومًا الضباع الضارية، والطريشات العمياء، وبأس بعض البدو الذين يقسون أحيانًا على الغرباء، إن أساءوا فهمهم، أو طمعوا في حاجياتهم البسيطة. أما أمثالك فيخشون زخات رصاص كالمطر، وقذائف دبابات وطائرات جامحة، وقطع الليل البهيم الراقدة في نفوسهم.

كان «أبو سريع» يعرف هول الرحلة، فقد رأى ذلك على وجوه العائدين، لكنه لم يشأ أن يخبر زوجته بما ينتظره، حتى لا يأكلها قلبها عليه. وقال لها قبل أن يقطع خطوته الأولى نحو المجهول:

- خلي بالك من العيال.

ومن لحظتها جلس الصغار ينتظرون الحلوى التي وعدهم بها. الحلوى قبل الخبز أحيانا. هكذا يفكر الأطفال، أما الأم فقد كانت تخبط حيرة، وهي مهمومة بتدبير كِسَر البتاو، وشيء يبلع معها.

بعد شهور جاءتها منه خمسون جنيهًا، وكانت أيامها مبلغًا لا بأس به، أما هو فلم يعد إلى الآن. وتوالت على أسماع أهل القرية حكايات عن غيابه مثلما جاءتني بقايا أخبار عنك يا ولدي. هناك من قال إن لغمًا انفجر به وهو عائد، لغم زرعه الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وانتظره مدفونًا خمسة وثلاثين عامًا كي يحصد روحه. وهناك مَن قال إن رصاصة بدوي قتلته حين اعترضه لصوص ليسطوا على رزقه الشحيح. وهناك مَن قال إنه عاد لوحده فتاه في الصحراء، ونهشته الضباع.

سافر كثيرون من قريتنا إلى ليبيا في السنوات اللاحقة وسألوا عنه، ولا إجابة. وطال انتظار الزوجة، ولم ينقطع أملها، فهل كان بوسعك أنت، يا ولدي، أن تسأل عن الخبر اليقين؟ وهل أمثال «أبو سريع» مدرجون على قوائم اهتمام أمثالك؟

المهم، يا ولدي، أنه بعد زيارة الشيخ «عمران» لبيت «أبو سريع» لم يتوقف أهل القرية عن طرق بابها، فكبر العيال على ما جاد به الخيِّرون، وعلى ما جمعه الأولاد أنفسهم من قروش قليلة نظير شغلهم في غيطان الناس. وهكذا حتى صاروا رجالًا، لا يرد ذكر أحدهم إلا وأطلت من الذاكرة حكاية الصوفي العارف، الذي حمل صينية الطعام إلى دارهم ذات ليلة بعيدة.

العتبة الحادية عشرة

فاتنة طيبة، ذات قلب موصول بالسماء، وحظ مطمور في سابع أرض. تحبس عشقها الغض، لكنه لا ينام، ولا يشيخ، فتهدهده وتروض أحلامها الجامحة، لتمضي حياتها رتيبة. حين تشرق بسيل لعاب كثيرين فتجبرهم على أن يلملموا رذاذ رغباتهم المتوحشة وينحسروا، غير عارفين بأن وجدانها لا يحمل إلا صورة شخص واحد، ولا يردد إلا صوتًا واحدًا، يقول بلا انقطاع: الله محبة.

اقطع ثلاثين خطوة يا ولدي ستجد نفسك أمام بيت «روزالين»، كان هذا اسمها الذي يتعثر في نطقه أهل قريتنا. وأكاد أجزم لك أنني ما عرفت اسمها الصحيح قط، حتى رأيته مكتوبًا ذات يوم في عقد بيع قطعة أرض صغيرة، أراه لي ابنها الأكبر «بطرس» بعد وفاتها، حين جلس مع إخوته يوزعون ميراثها القليل.

يومها وقف «بطرس» وسط إخوته، «حنا» و«مينا» و«ماريا» و«زكية» وقال:

- كل واحد سيأخذ نصيبه حسب شرع ربنا.

وأرسلوا إلى الشيخ «إسماعيل» شيخ الجامع ليأتي ويوزع الميراث بينهم. وحين جاء تعلقت عيونهم بفمه، حتى نطق بما أملته عليه آيات القرآن. فأخذ كل منهم نصيبه، وتحلقوا حول الشيخ وهو يقرأ الفاتحة على روح الجميلة «روزالين».

طبعًا لو كنت أنت معهم كنت ستكفِّر شيخ الجامع؛ لأنه ترحَّم على سيدة مسيحية، وإن أحسنت فستكتفي برفض بسط كفيك لتقرأ الفاتحة، وتتمتم في سرك لاعنًا:

- إلى جهنم وبئس المصير.

مع أن «روزالين» لم تؤذِ أحدًا في حياتها، ولم تضبط مرة وهي تقابل جاراتها المسلمات بوجه عبوس، ولم يسمع أحد من فمها يومًا لفظًا جارحًا، وعملت في الحقل والبيت بهمة حفنة من الرجال، ولم تته على أي امرأة بجمالها أبدًا. بل كانت تقول للنساء اللاتي يملأن عيونهن من وجهها الوردي الصبوح ويشهقن:

- خلقة الرب ونعمته، وعليها سيحاسبني.

وكنت أسمع جدتي، التي لم ترها أنت أبدًا، تناديها: «رزنا»، وأحيانًا تتمتم بصوت خفيض وتسميها «رزية». كانت تحملق في طلعتها البهية وتقول لي:

- جدك كان عاوز يتزوجها.

فيمتلئ وجهي بالدهشة وأقول:

- لكنها نصرانية.

فتصمت برهة وتقول:

- الرجل المسلم يحق له أن يتزوج نصرانية.

أما جدي فكان يرتعش قليلًا كلما رآها، ويمصمص شفتيه، ويهمس حتى لا تسمعه جدتي:

- كل ما تكبر تحلو.

كان مسكونًا بها، لا يرى الدنيا بعينيها فحسب، بل بوجهها أيضًا؛ لأنه يطارده كظله، لا، ليس كظله لأن الظل قد ينحسر من رحيل الشمس على مهل، ويذوب تمامًا في الأماكن المغلقة، ويتلاشى في الظلام، لكن كطيفه، وربما كالملكين اللذين يحصيان حسناته وسيئاته، أو كأنفاسه التي تنبئه دومًا أنه لا يزال على قيد الحياة.

وأسأله عن حكايته معها، فيرمي رأسه إلى الخلف قليلًا، ويكاد يغمض عينيه، وأرى رقرقة دموع في محجريه، ثم يقول:

- حرمني أبي منها، مات هو وتركني لوجعي.

فأستحضر وجه جدتي ناصع البياض، وقوامها الممشوق، وعينيها المائلتين للزرقة، وشعرها الذي يتخالط فيه الأسود بالذهبي، وأقول له:

- ألم يكفِكَ جمال جدتي؟

فيبتسم ويرد:

- جدتك ست الحريم، لكن القلب وما يعشق.

وكنت كلما سألته عن حكايته مع «روزالين»، يربت كتفي ويقول:

- اسكت يا عفريت.

لكنني لم أسكت، غافلته ذات عصر، وقرص الشمس يذبل إيذانا بالسفر، ورميت رأسي على فخذه، ورفعت هامتي لأرى معه الشفق الراكد الذي راح يتشكل فوق شواشي النخيل، وقلت له:

- لن أقوم من مكاني هذا حتى أسمع الحكاية التي تكتمها في صدرك.

تسربت حمرة رائقة إلى خده القمحي فازدهى، ومد كفيه إلى رأسي ورفعه من مكانه، ثم سحب فخذه بهدوء، وقال لي:

- روح ذاكر دروسك أحسن.

فاشتعل غضبي، لكني كتمته، ورددت عليه:

- هل يخجل واحد في سنك يا جدي؟

فابتسم وقال:

- العشق لا سن له يا ولدي.

فضحكت من طرف خفي، وتساءلت من جديد:

- ولا دين له يا جدي؟

هز رأسه:

- ولا دين له.

وقتها تذكرت مشاهد العشق التي أراها في الأفلام الأجنبية، وكيف تتطابق مع تلك التي أتابعها في أفلامنا العربية، وقلت:

- حقًّا يا جدي، العشق لغة ينطق بها كل الناس على سطح الأرض.

ففتح عينيه دهشة، وبدت على ملامحه حيرة حيال هذا الولد الملقى جانبه، وقال:

- طالك الوعي بدري يا بن ابنتي.

ورفرفت بشائر النجوم في سماء تكسوها سمرة أول الليل، وبدأت الضفادع في النقيق، ونبح كلب من جوف الزراعات البعيد، فقال لي:

- هات الحطب.

وكنت أعرف أنه يبوح وهو يرشف الشاي الساخن، فجريت نحو شجرة الجوافة، ولملمت بعض ما تبقى من فرعها الذي أسقطته الريح قبل أسبوعين، وسلمته إلى الشمس لتجففه. خطفت بين ذراعيَّ حزمة ليست بالقليلة، وعدت نحوه مهرولًا، وضعتها أمامه، فمد يده ولملم بعض القش السابح حولنا، ودسَّه تحت الحطب،

وأشعل النار، ثم صب ماء من القلة في جوف البراد الملفوف في سواد الحرائق المتتابعة على جوانبه المستديرة، ووضعه على طرف النار. ولمعت في نور النار وشعاع النجوم الذابل دموع نابتة في مقلتيه، فمدَّ كم جلبابه ومسحها، ثم تنهد وقال:

- كان العيش قد حل بجسدي يوم رأيت «روزاليـن». كان أبوها غريبًا على بلدنا. جاء فجأة. من أين؟ لا نعلم، واشترى قراريط وبقرة وحمارًا. كان يركبه وهي وراءه. بنت ترمح من الطفولة إلى الشباب، وتخطف كل مَن ينظر إليها. ربما كنت أولهم، أو رقم مائة من بينهم، ليس مهمًّا، لكن لا أعتقد أن أحدًا في هذه البلدة من شرقها إلى غربها قد هام بها مثلي أنا.

سكت، فسمعنا نشيش الماء، ولفح البخار الساخن وجهينا اللذين يعانقان النار، ولم أشأ أن ألح عليه، حتى لا يزهق أو يخجل، بل لذت بصمت عميم، وأخذت أطلق من بين شفتي صفيرًا شجيًّا، كناي معذب يقف عند حافة السماء وحيدًا. هز رأسه لصفيري، وراح يقاسمني العزف الحزين، وكان أبرع مني بكثير في هذه الهواية التي كان مشهورًا بها في كل القرى التي نعرفها.

ثم كفَّ فجأة عن الصفير، وصب الشاي، وسحب رشفة طويلة وقال:

- مازلتها وشغلتها وجعلتها لا ترى في كل شباب القرية غيري. قابلتها مرات قليلة عند انحناء الجسر، أو تحت ظل الجدران في لفح الهجير وهي عائدة وحدها من الحقل، وثلاث مرات فقط في ظلمة الليل عند الساقية، في إحداها عرفت طعم شفتيها. كنت أسهر الليل أسمع الأغاني لأجمع لها كلماتي، لكنها كانت عاجزة عن شفاء غليلي، فتعلمت معها وفيها أن أقول كلامًا كالنشيد. وحملته إلى أفراح القرية. كنت أنشده فترفرف قلوب الأولاد والبنات، وينفض الكبار غبار الزمن عن قصصهم القديمة.

أراك يا ولدي قد شنفت أذنيك لحكاية جدي، وها هي ملامحك تنبسط، ويستيقظ الإنسان الذي سجنته داخلك، فما بالك لو قلت لك نشيدًا من أناشيده. لن أبخل عليك، فلن تعرف إلا إذا سمعت ووعيت، فأنت كثير السماع، وقليل الوعي.

لكن من أسف نسيت كل شيء في أيام اللهفة عليك والجزع منك. حتى قدومي إلى هنا بصحبتك لا يعيد إليَّ رجع الأناشيد القديمة ولا صفير الناي ونواحه الذي كان يرفرف له قلبي الغض. كل ما أتذكره الآن هو ذلك النشيد الذي كان جدي يقول فيه:

«أقمار الدنيا جبين حبيبي

وتفاح الجنانين خدوده»

وأتذكر نشيدًا آخر كانت بدايته:

«بعدك حزني صديق

يا وردة قطفها غيري».

بين هذين النشيدين تاه جدك يا ولدي، وراح يقول: «لا النشيد ولا الربابة فيها طبابة لمغرم صبابة».

يومها لم يكمل لي حكايته، فقد جاءنا، ونحن جالسين أمام براد الشاي، صوت جدتي وهي تناديه. كانت ملهوفة عليه لأنه تأخر عن المعتاد. فلما جلست أمامه رمى رأسه على صدرها، وطوقها بذراعيه وقال لها:

- لا يتحملني غيرك.

فمسحت شعره بأصابعها وقالت:

- ولا يملأ عيني غيرك.

لم أسأل جدي عن بقية الحكاية لأن كثيرين في قريتنا حدثوني عن المسلم الذي أحب المسيحية، فقال له أبوه: فارقني. وقال لها أبوها: فارقيني. لكن لا أبوه ولا أبوها تخاصما، بل جلسا سويًا ذات ليلة وتعاتبا، وانتهى الأمر في هدوء. في الصباح خرجا معًا إلى الحقل، يتحدث أبوها عن ابن عمها الذي خطبها منذ أن كانت طفلة، ويتحدث أبوه عن زواج ابنه في موسم القطن.

أترى يا ولدي، لو كنت بينهما في هذا الزمن بما في رأسك، ألم يك رصاص قد فرقع، ودماء قد سالت؟ أم كنت ستقول لجد أبيك:

- اخطفها ولتكن من سباياك.

أراك قد غضبت، وربما تقول في نفسك إنني أجهل أنك تعرف أن شابًا مسلمًا يمكن أن يتزوج كتابية ولا مانع في هذا، لكن ما يدريني أنك ستقول إن «روزالين» مشركة وليست كتابية، مع أنني سمعتها تقول للبائع في السوق:

- وحد ربك.

وحين كانت تمسك بيديها ما اشترته ينير وجهها وتقول:

- اللهم صلِّ على النبي.

ثم تمضي راضية وهي تلثم الأرض، فلا تؤذي حتى التراب.

وما أعترف لك به الآن أنني طالما استعدت حكاية «روزالين» فيما بعد كثيرًا وأنا أترافع في قضايا عن حرية الاعتقاد، وزواج المسلمين من مسيحيات، وقصص الحب بين مسلمات ومسيحيين، وغصت في طوايا الكتب، وتوجعت من تباريح مَن يتقلبون من فرط الهوى كحبات الذرة فوق جمر، وتأملت نصوص «القرآن»

و«الإنجيل» وتهت طويلًا في أحوال الناس ومشاغلهم الآنية، وكتبت مقالًا بعنوان: «الزواج المدني هو الحل»، فقامت الدنيا ولم تقعد، وهاجمني بضراوة الشيخ الذي أغواك، كما تابعت أنت في غيابك، بدليل ما ورد في خطابك الزاعق، الذي أشرت فيه إلى هذا الموضوع. كنت كأنني أسمع صراخك يدوي في الفلوات ويرن بين جدران الجبال الشاهقة، لكنه كان يتلاشى أمام همسات جدي، التي تأتيني من جوف الزمن البعيد، وهو يتحدث في ولهٍ وافتتان عن «روزالين» الجميلة.

العتبة الثانية عشرة

جسد يفور، وعقل يغور، لصبي نزق، يعطي ظهره لعجوز ورث عنه عينيه الشرهتين، وأنانيته المفرطة، وبطنه الذي لا يشبع. في يوم يمضي إلى رحلتين، واحدة قصيرة الزمن والمسافة إلى رغيف ناشف، وثانية إلى لقمة طرية، مغموسة في الدم واللهيب، تأخذه هذه إلى النهاية المحتومة، ويفتح وراءه نوافذ الأسئلة الصعبة.

ما إن تفتح «روزالين» بيتها حتى تجد في وجهها باب العم «سرحان». باب سميك من الكافور يقف خجولًا بين حائطين من الطوف، جذورهما متساوية قليلًا، ومنبعجان في المنتصف، ويميلان في الأعلى إلى الوراء كأنهما سيسقطان بعد قليل على رأي «سرحان» وزوجته «رضية» وأولاده الأربعة، لكنهما لا يسقطان أبدًا.

أتذكر، يا ولدي، العم «سرحان» جيدًا، وجهه الأسمر وسط لحية شهباء محفور في رأسي، وعيناه الغائرتان تحت جبهته لا تزالان رغم انطفائهما منذ سنين طويلة تبرقان أمامي، كأنه لا يزال هنا، يجلس على كرسي متداعٍ أمام البيت، في يده مذبة يهش بها، وهو يسعل ويبصق دون توقف، وصدره يرتج حتى يكاد المارة يسمعون صوته خارجًا من بين الضلوع.

كان رجلًا بصباصًا، لا صناعة له إلا التلصص على «روزالين»، وهي خارجة من بيتها، وداخلة إليه. يملأ عينيه من جسدها الممشوق،

ثم يحطها فوق ضفائرها النائمة على ظهرها تحت الطرحة السوداء الكثيفة، ويتمتم:

– مُهرة ومحتاجة خيَّال.

لم تكن هي تعيره اهتمامًا، ولم تضج بالشكوى منه إلا مرة واحدة لزوجته. اقتربت منها، وهمست:

– ربنا يهدي زوجك.

فضحكت حتى كادت تسقط على قفاها وردت:

– هو حيلته غير الكلام؟

– كلام؟!

– ليس معه إلا لسانه.

ونظرت إلى يمينها، حيث كان «حسن» ابنها، يجلس أمام الطبلية يتناول غذاءه:

– وحياة «حسن»، هذا اللسان الكبير، زي أختي من سنين طويلة.

وتدفق الدم إلى خد «روزالين»، وهزت رأسها، ومضت وعيناها أمام قدميها، وهما تتقدمان نحو باب بيتها الموارب.

لكن المشكلة، يا ولدي، جاءت من «حسن»، الذي كان اسمًا على غير مسمى. كان مراهقًا جسورًا متينًا، فار جسده بسرعة؛ لأن

فمه لا يكف عن لوك الطعام. يقف ساعات قليلة في دكان صغير يملكه والده، ونصف الربح يذهب إلى بطنه. هي تطحن وهو يزداد طولًا وعرضًا.

لن أتوقف كثيرًا عند تحرش «حسن» بـ«روزالين»، رغم أنها في سن أمه، أو أصغر قليلًا. فهناك ما يهمك أكثر. هناك ما ستفتح له عينيك مندهشًا، وربما تطلب مني أن أحكي المزيد والمزيد، أو أتوقف في حكايتي عند حسن، وفي رحلتي أمام هذا البيت الذي صار أطلالًا. قد تقول لي:

– قف مكانك يا أبي، ولا تتحرك بعيدًا عن هنا خطوة واحدة.

بالقطع ليس لأنك تسترجع في هذه البقعة النائمة من هذا الشارع الذي لا اسم له، حكاية «روزالين» الجميلة، لكن لتعرف أكثر عن «حسن» الهائج المائج، الذي سار ذات يوم في الطريق الذي سلكته أنت. سار مندفعًا نحو نهايته، التي ربما لم يشهدها غيره.

ربما أغمض عينيه سابحًا في دمه، فدفنه إخوة الجهاد تحت سفح الجبل، ولم يتركوا فوق رأسه أي علامة تدل عليه، فشواهد القبور عندهم حرام. ربما مات وحيدًا على الصخور المدببة فأكلته النسور والضباع. ربما ذاب في حمم النار الزاعقة الحارقة، فتفحم وصار رمادًا تذروه الرياح.

لا أحد يعرف كيف مات «حسن» في غربته؟ لكن جميع من في البلد يعرفون كيف مات أبوه؟ كان العم «سرحان» جالسًا أمام البيت على كرسيه، ومرت «روزالين» من أمامه فدفس عينيه في ردفيها المتأرجحين، وراح يتلمظ، ويلوي عنقه وراءها وهي تميل نحو بيت قريب، حتى سقط من على كرسيه المتداعي فوق حجر ضخم كان يستقر إلى جانبه منذ سنين. طرراخخخخخخ .. هكذا سمعت زوجته صوت سقوطه، فهرعت إليه، لتجده فاقد الوعي، فمه مفتوح يدفع رغاءً يختلط ببياض الحجر، وعيناه منبلجتان.

رمت أذنها على صدره فسمعت أنفاسه الواهنة. صرخت فجاء الناس وحملوه على حمار وساروا به نحو مستشفى قرية «زهرة» لكنه فارق الحياة في منتصف الطريق، فعادوا به واجمين.

لم يكن «حسن» معهم، فقد كان غائبًا عن القرية منذ شهرين. حشر ملابسه القليلة في كيس سماد فارغ وسار على الجسر يلهث بعد واقعة «ماريا» التي لم ينسها أهل القرية.

لم يكن يدري، يا ولدي، وقتها أنه يضع قدميه على أول طريق الهلاك. لو علم لمشى على الجسر مترنحًا يبكي، أو عاد فأفرغ ملابسه في «السحارة» المتهالكة، ورضي بالجلوس أمام البيت يراقب اشتهاء أبيه لـ«روزالين»، ويروض اشتهاءه هو لابنتها «ماريا».

وحين تندفع آثار الطعام الدسم الذي التهمه في عروقه يصحو معول الرغبة الراقد بين فخذيه، فلا يجد ما يهدئه سوى استدعاء صورتها في أحلام اليقظة.

ذات مرة حشرها في الحائط وهي عائدة من الحقل مع مطلع الليل، فلكزته بكوعها في صدره، وفي المرة الثانية قالت لأمها فاشتكت إلى «أبو سعيد»، وهو قريبهم من بعيد، لكنه كبيرهم على أي حال. ووبخ الرجل «سرحان»، فوبخ ابنه، فصرخ في وجهه، وهو ينظر إلى نصفه الأسفل:

- لا أستطيع الصبر.

فقالت الأم:

- نزوجه.

فقهقه «سرحان» ورد:

- العين بصيرة واليد قصيرة.

ليلتها قرر «حسن» أن يذهب في الصباح إلى بندر «المنيا» وراء أي عمل يجده. كان يعرف من أين يبدأ؟ فقد اتفق أبوه مع صاحب له هاجر إلى البندر منذ عشرين سنة، وصار له «كشك» على ناصيتي شارعي «الحسيني» و«ابن خصيب» يبيع فيه كل ما تيسر له. وعن طريقه التحق «حسن» بعمل في محل لبيع الدجاج.

كان يغيب عن القرية شهرًا أو اثنين، ثم يأتي حاملًا معه لأهل بعض ما تحتاج إليه. لكنه بمرور الوقت كان يعود مختلفًا. شيء ما راح يتغير فيه. ليس فقط الجلباب ناصع البياض، والطاقية الشبكة التي تحط على رأسه الحليق، واللحية التي راحت تمضي في طريقها بلا أي مانع، لكن أيضًا لغة أخرى تنمو في لسانه، كلمات وتعبيرات لم تعرف إلى نطقه سبيلًا من قبل. كانت غريبة على أسماع الناس، بل غريبة على سمع مَن ينطقها، لكنه يرددها كما سمعها كبغاء قدير، دون أن يتوقف عند معانيها ومراميها.

صار يلقي على الناس التحية كاملة «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وبعدها يجدونه يحرك أصابعه في سرعه. ولما سأله أحدهم عن هذا قال: أعد الحسنات التي حصدتها من إلقاء السلام. وصار يسمي كل أحد في البلد بـ «الأخ»، كبر أو صغر، المتعلمون والأميون، فينادي أحدهم: يا أخي. ويقول لأي بنت أو امرأة: يا أختاه، وأحيانًا «يا أمة الله». وكلما فعل له أحد شيئًا حسنًا، يهز رأسه ممتنا ويقول له: جزاكم الله خيرًا. والأيام التي يقضيها في القرية يرابط كثيرًا في المسجد، يؤدي الفريضة، ثم ينهمك في النوافل. وكان كلما قال شيخ الجامع شيئًا، ينظر حسن إليه ويقول له: هذه بدعة يا شيخ.

وفي يوم قال لبعض الشباب على ناصية الشارع:

- عدنا إلى زمن الجاهلية.

ورفعوا عيونهم إليه مندهشين فأفصح:

- نحن غرباء، ويومًا ما سنفتح هذه البلدان الكافرة، وندعوا فيها إلى الإسلام من جديد.

وقهقه الجميع، ونظروا إلى لحيته وجلبابه، وتركوه وانصرفوا. لكن جفولهم منه لم يضنه؛ لأن المنصرفين في نظره معذورون بجهلهم، وسيفهمون ما يقوله يومًا ما.

وفي يوم كاد يطير فرحًا حين ابتسمت له «ماريا» وألقت عليه التحية:

- مساء الخير يا شيخ «حسن».

مع هذه فقط تنازل عن رد السلام كما اعتاد عليه في الأيام الأخيرة، ورد عليها بامتنان:

- مساء النور.

ثم دفس عينيه في ردفيها، وراح يتلمظ، ويميل برأسه حيث تميل، فتحك لحيته كتفه، وتستقبل بعض لعابه.

يبدو أن هذا الكلام يغضبك يا ولدي، ها هما وجنتاك تزدادان احمرارًا، بل تسرب اللون الأحمر إلى بحر عينيك وأرنبة أنفك،

وراحت لحيتك تنكمش نحو فمك وجلد وجهك، ولولا بعض أدب لطوحت يدك معلنًا غضبك واشمئزازك. لكنك تعلم جيدًا أن أباك لا يكذب؛ لأنك لم تضبطه يومًا وقد تفوه بشيء غير الصدق.

يكذب الخائفون والمخادعون والمصابون باللوع، وأنا لست واحدًا من كل هؤلاء. لهذا تتغير ملامحك لقولي عن «حسن»، لأنك تعرف أن ما يخصه يخصك، وما يمسه يمسك، ولو كان على قيد الحياة الآن، ورأيت لحيته لأخذته في حضنك وضغطت على ظهره ومنكبيه بساعديك وقلت له في امتنان: يا أخي، ثم تركتني أكمل الرحلة بمفردي، وجلست معه لا تريد أن تبرحه.

ومَن يدري أن تكون قد دُست على عظامه النخرة وأنت تسبح في الصحاري الغريبة، أو أن ريحًا من التي هبَّت فوق رأسك وكادت تسقطك أرضًا حملت بعض رفاته فمر من أمام أنفك أو ذرة منه استقرت على جبينك أو رموشك. ولعل واحدة منها قد هبطت فوق الأهداب النابتة على ضفتي أنفك، ولا تزال في مكانها حتى الآن، فازفر بشدة لعلها تخرج وتحط على أقدام هذا البيت القديم الذي لم يعد يسكنه أحد.

كان آخر صوت تردد في جنبات جدرانه هو صوت «ماريا»، وهي تصرخ مستغيثة من «حسن»، حين كان يمد أظافره بقسوة محاولا أن يخمشها حتى تسكت وتستكين بين ذراعيه، وتنتظر لهيبه. قبل دقائق

استأذنته لتدخل وراء دجاجتهم التي طارت من فوق سطح بيتهم إلى سطح بيت «سرحان». فأومأ لها موافقا وهو جالس أمام البيت يتعتع في كتاب ذي جلدة خضراء متينة، معتمدًا فقط على ثماني سنوات من الدراسة جعلته قادرًا على «فك الخط». فلما توغلت في البيت وغابت أغلق الكتاب، مطمئنا إلى نوم أمه المسنة العليلة، والتفت عن يمينه وعن يساره فلم يجد أحدًا، فهرع نحو الباب الموارب، دخل وأغلقه. هي تبحث عن الدجاجة وهو يبحث عنها، حتى حشرها في ركن الحجرة المظلمة. قالت له بصوت واهن:

- عيب يا شيخ «حسن»، أنت رجل تعرف ربنا.

لم ترَ ابتسامته جيدًا في العتمة، لكنها سمعت ما قاله:

- حين تقوم دولتنا ستصبحين جاريتي. سأسبيك وتكونين ملك يميني. الدولة قادمة لا ريب فيها، فما الداعي للانتظار.

لم تفهم منه شيئًا، لكنها أدركت من حركات يده، والجوع الذي قفز من عينيه فاهتزت له العتمة، أنه يريد بها شرًا. صرخت، ثم ضربته بركبتها بين فخذيه، وأفلتت جريًا نحو الباب. وبعد ساعات كان البلد كله يعرف ما جرى، وكان «حسن» يفكر في أن يحشر بعض ملابسه في قعر حقيبة جلد سوداء، عازمًا على أن يغادر بلا عودة.

وحين كانت «روزالين» تشكو للعمدة «حيدر»، كان «حسن» يهرول على الجسر، ينزع قدميه من بحر التراب، ويتقدم لاهثًا نحو

محطة قطار قرية «صفط اللبن» حتى وصلها بعيد الغروب، ليختفي في عتمة الليل عن أنظار بلدته إلى الأبد.

لم يسأل عنه أحد من أهل القرية سوى قريبه «أبو سعيد». كان قد التقاه مرتين في محل بيع الطيور، فلما استبطأه، قال للناس:

– الله تواب رحيم.

فقال له العمدة غاضبًا:

– هذا نبت شيطاني.

فهز «أبو سعيد» رأسه وقال:

– أخشى أن يمتد شره إلى غيرنا فيأتون ليسألوا عنه بيننا، فينفتح باب للشر لا راد له.

فرفع العمدة يده:

– اذهب وأعطه الأمان على ألا يعود إلى فعلته، وحين يأتي معك لا يدخل بيته حتى أراه.

وذهب ذات صبح قاطعًا «ميدان الحبشي» مارًّا بالنسوة اللاتي يفترشن الطريق بالخضار والجبن والبيض والبتاو والفريك على أول السوق حتى وصل إلى محل الطيور. وقف أمامه ورمى بصره فمسح جنباته، ولم يجد شيئًا سوى رجل بدين يقف في المنتصف

وأمامه ميزان أبيض ووراءه أقفاص الدجاج والبط والإوز والديوك الرومي والأرانب.

تقدم إليه وسأله، فجاءه صوت أجش:

– راح يجاهد.

– يجاهد؟؟!

– أخذه الإخوة إلى «أفغانستان».

ثم التفت إلى أقفاص الطيور، وواصل:

– سيقبض ألف دولار في الشهر، وهو يبيع أباه بعشرة جنيهات.

لماذا عاد إليك الغضب حين كشفت لك حقيقة «حسن»؟ لا تخف فأنا أعرف أنك مختلف عنه. لم تذهب إلى هناك وراء الدولارات. فالمال لم يشغلك أبدًا، وأشهد لك بهذا. لكنك ذهبت وراء ما تصفها بأنها «تجارة لن تبور»، مع أنها ليست هكذا أبدًا. ومع هذا فأبوك، كما تعرف، يحترم كل ما يسعى وراء مبدأ يؤمن به، ويستعد لأن يضحي من أجله، ولا يوجد ما هو أصدق من الدماء.

لكنني كنت أقول لأمك طيلة السنوات الفائتة:

– دم ابنك يتقاطر فوق التراب الخطأ.

كانت تبكي، وترفض حديث الدم، وتحلم بأن ذراعيها سيطوقانك من جديد. هكذا كانت تحلم «أم حسن» أيضًا حتى وجدوها ميتة

وهي ممسكة بصورة قديمة له، مع أنه نهرها قبل رحيله بأيام، وهي العجوز الضامرة، حين وجدها جالسة أمام البيت كاشفة شعرها، وتاركة إياه للشمس حتى تكنس القمل الذي سكنه، وهي تكدح بين الحقل والدكان غير عابئة بشيء إلا ما يملأ بطنها.

يومها صرخ فيها:

– ادخلي الله يلعنك.

ولامه الناس وقرعوه، فملأ عينيه بالغضب، وشد لحيته بأظافره، وأشاح بيده:

– لو عرفتم شرع الله يا كفرة لفهمتم ما فعلت.

هكذا قلت لي أنت يا ولدي ذات ليلة مثلما قال «حسن» لأهل بلدنا، رغم الفارق الكبير بينك وبينه، وبيني وبين مَن كان يخاطبهم. لو تتذكر تحدثنا ليلتها، بينما نور شحيح ينام تحت أرجلنا، عن قضية الشريعة. أنت كنت تقول إن بلدنا يجافيها، والسلطة تحاربها، وأنا كنت أقول لك في صراحة تامة: «أنا مع تطبيق الشريعة كما جاءت في «القرآن الكريم» بشرط أن نقرأه دون اجتزاء، وكل ما لا يخالفه مما نُسب إلى الرسول الكريم من أقوال، وكل ما تواتر عنه من أفعال، لكنني ضد «شريعة الخلق» التي يطرحها بعض مشايخك ويزعمون أنها «شريعة الخالق»، فمنحوا بذلك أقوال وتخريجات البشر قداسة وقدموها دون أن يدروا على وحي السماء، واستعاروا

ما أنتجه الأوائل عبر إعمال العقل في مشكلات واقعهم على أنه «نقل»، شأنه شأن «التنزيل».

أستعيد الآن هذا الكلام المصفوف المتماسك، الذي حفظته من كثرة ترديده، خلال سنوات غيابك المرير، في وجه مَن يقيمون دعاوى قضائية ضد مَن وكَّلوني من أدباء وباحثين اتهمهم أمثالك، يا ولدي، بالتجديف في الدين وازدرائه، ولأني رددت عليهم وأفحمتهم، أرسلت لي خطابك الأول والأخير، الذي تخرجني فيه من الملة.

ذات يوم قلت لك هذا في دفقة واحدة، كنت ألهث، وأنظر إليك، لأرى وقع كلامي عليك، ظننت في البداية أن ما أقوله سيفرحك، ويبين لك أن المسافة بيننا أقصر مما تظن، لكنك يومها تبرَّمت وقلت: «مشايخي يقولون عكس ذلك، ويطلبون منا أن نتحرى الدليل الشرعي من القرآن والسنة»، فأجبتك في ثقة: «هم سينكرون أنهم يوصون بهذا من الناحية النظرية، فإن اكتشف أحد في أدلتهم غير ما نزل من عند ربنا، سيقولون: حاشا لله. لكن من الناحية العملية لو قمت بدراسة خطابهم وخطبهم وفتاواهم وتخريجاتهم وآرائهم ستجد أنها تذهب إلى النص الأصلي عبر طبقات متراكمة من أقوال البشر وأفهامهم. وإذا أردت أن أقدم لك دليلًا، وأنا رجل القانون الضليع كما تعلم، على هذا سأذهب معك لأحضر درسًا

أو اثنين، ومعي ورقة وقلم، لأسجل لك كل الملاحظات التي تبين صدق ما أقوله لك».

تابعتني صامتًا، ثم نفخت وأبديت تبرمًا، ورحت تتقلب في مكانك كأنك تقعد فوق الجمر، وعدت تقول: «يكفيهم أنهم يسعون إلى أن يكون شرع الله حاكمًا بيننا».

قهقهت أنا يومها، وهزت ضحكاتي هالات النور فانسالت على الحوائط، وقلت لك: «الشريعة كما أفهمها لم تغب يومًا عن الشعب المصري، فهي مطبقة كاملة، ومتجسدة في قانون الأحوال الشخصية، حيث أحكام الزواج والطلاق والميراث. أما بالنسبة للحدود، فهناك التعزير الذي استبدل السجن بقطع يد السارق، وجلد الزاني وشارب الخمر، وهذا من حق الحاكم، كما اتفق الفقهاء الأوائل، وحتى لو لم نرد التعزير هذا، فإن الشروط الصارمة والقاسية التي وضعت في سبيل تطبيق الحد تكاد تقول لنا بوضوح إن الحدود للردع. والقانون المصري الحالي لا يكافئ السارق، ولا يحتفي بالسكير، ولا يبارك فعل الزاني، إنما يعاقبه».

ونظرت ساعتها من النافذة فرأيت بائعًا متجولًا، يحمل على ذراعيه «كرتونة» مملوءة بعلب المناديل الورقية الناعمة، ليكسب في نهاية يوم عمل شاق بضعة جنيهات، وآخر يمد يده سائلًا الناس

أن يعطوه مما أعطاهم الله، ورجل ريفي يمشي في بطء قابضًا على يد ابنه الذي يعرج في صبر. ملأ هؤلاء بصري ورأسي فقلت لك: «الشريعة حقوق قبل أن تكون حدودا، لكن المتعجلين والجهلاء وتجار الدين، الذين تنبهر أنت بآراء بعضهم، يتلاعبون بعقول بسطاء الناس، ويصورون لهم الأمر على أن الدين في خطر، وأنهم هم حراسه الأوفياء».

كنت متدفقا أيضًا، بالدرجة نفسها التي قلت فيها كلامي السابق، وكنت أيضًا أحفظ هذا عن ظهر قلب، وأكلمك مثلما أكلم القاضي. تخيلتك القاضي، فوضعتك في منزلة فوقي، لكنك لم ترق لأبيك الذي يتواضع أمامك حتى يستميلك.

وحكيت لك يومها قضايا عديدة قرأتها في صفحة الحوادث عن ضبط سكارى في الشوارع، وسجن لصوص، وشنق قتلة، وذكرتك بأنني لم أدافع يومًا عمن يستقر في يقيني أنه مجرم، ولا أقبل إلا قضايا من أراهم للوهلة الأولى أبرياء. ولما وجدتك مصغيًا في صبر عاجلتك بما وددت دومًا أن أقوله لك: «الشرع يُبنى في النفوس قبل النصوص، وفي الواقع المعيش وليس في بطون الكتب التي يسترزق منها شيوخك».

وهنا تبخر صبرك وصرخت مستنكرًا: «يسترزقون!!!»، فقلت لك في هدوء، وأنا أربت كتفك لعلك تهدأ: «يا ولدي لا تملأ

نفسك بالأحقاد على مَن حولك، فكل الناس في بلادنا يمتثلون للشريعة عن طيب خاطر، من دون تشدق ولا مظاهر كاذبة وفارغة، ودون أن يجلسوا طول الوقت ليتحدثوا عن اعتزازهم بالشرع؛ لأنه ذائب في نفوسهم وقلوبهم. لكن المشكلة فيمن يثرثرون ليل نهار ويذرفون دموع التماسيح على «الشريعة الغائبة» و«المجتمع الجاهلي» و«الدولة المارقة» التي يجب أن يفتحوها من جديد، ليحطموا أصنامها وينشروا فيها الإسلام الذي يحملون توكيله، ويعرفون وحدهم أركانه، ويحملون بمفردهم مفاتيح الجنة التي وعد بها الله المؤمنين. إن هؤلاء يذكروننى بالحكمة التي تقول: احذر المرأة التي تتحدث كثيرًا عن الشرف، والآن أقول: احذروا الذين يتحدثون عن تدينهم ويتباهون به، فالمتدين الحقيقي يذوب الدين في سلوكه، ويلمسه الناس، ولا يكون في حاجة إلى الإعلان عنه، والتشدق به، وهذا ما قلته لك مرارًا، لكنك كنت كل مرة تتابعني بدم بارد، وعينين محايدتين، وأنت تلعب في شعر ذقنك.

وضايقك هذا التشبيه ففزرت في تبرم، ولولا بعض حياء أو هيبة مني لوجهت لكمة قوية إلى وجهي وتركت الدم يلون بقع الضوء السارية التي تبرق فيها حروف كلامنا. لكنني وجدتها اللحظة المناسبة لأسكب كل الكلام المختزن في صندوق أحزاني على رأسك وأنا أراك تشرد بعيدًا عما تمنيته لك، فاقتربت منك وواصلت: «يعلم أغلب شيوخك أنهم يكذبون، لكن يريدون أن يحصدوا أي

مكاسب سياسية ومالية باسم الشرع، حتى لو على حساب الأخلاق التي بعث الرسول ليتممها، أو على حساب حق الناس في أن يكتفوا من الغذاء والكساء والدواء والإيواء والتعليم والترفيه وهو جوهر الشريعة وعينها، لكن هذا يتطلب أفعالا لا أقوالا، وهم مفلسون ليس لديهم سوى الكلام الفارغ، والبحث عن المناصب والكراسي والمغانم باسم الدين. يقرأ هؤلاء القرآن الكريم، ويفهمون أنه الأصل وأنه الوحي وأنه النص المؤسس للإسلام، ويعلمون أنه كتاب هداية في المقام الأول وأن التشريعات التي وردت فيه لا تزيد على مائتي آية من بين ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية تمثل المصحف الشريف كله، ويتلون «اليوم أكملت لكم دينكم» لكن يتناسونها ويكملون هم الدين زعمًا من عند أنفسهم، ويوهمون عوام الناس أن الدين مهجور، حتى يثيروا حميتهم الدينية فتحشدهم صفوفا متزاحمة أمام صناديق الانتخابات تصوت لصالح تجار الدين».

كنت أتكلم بحماس شديد، حتى تفصد العرق من كل مسام جلدي، وراح يتقاطر فوق خيوط الضوء فيبللها، ويعارك دوائر اللهيب التي كانت تحوم حول غضبك، فيرطبها قليلا. وكنت تتحمل كلامًا ربما تسمعه للمرة الأولى مني، حتى وصلت بك إلى لب المشكلة وقلت: «التشريعات قد يبدلها أو يوقفها تغير الأحوال وإلا ما أوقف سيدنا عمر حد السرقة في عام الرمادة، وأوقف الفقهاء ملك اليمين، أما العقيدة فهي الثابتة، وآفة مَن تستمع إليهم

أنهم جعلوا أغلب الأشياء في باب الاعتقاد، ففتحوا نوافذ لا نهاية لها للتكفير».

نظرت إليَّ، ونفخت وصرخت، وسللت ذراعك من جنبك ومددته أمامي وفردت كفك عن آخرها:

- كفى.. كفى.. كفى.

ورحت تركل الحائط بقدمك وتقول مثلما قال «حسن»:

- هذا فراق بيني وبينك.

أدركت وقتها أنني قد تركتك لهم ففعلوا بك الأفاعيل، وقمت لآخذك في حضني لأستعيد بك أيام ألفتك ووداعتك، لكنك نفرت، وجريت نحو باب الغرفة، وصفقته وراءك، وسمعت قرقعة قدميك على سلم العمارة. جريت وراءك لكن لم ألحق بك، خانني عظمي فوقعت على البسطة المربعة في الطابق الثالث، إلا أن صوتي وصل إليك:

- ألم ينتهِ الوحي بعد محمد؟

وجاءني صوتك زاعقًا:

- بلى.

- هل معك أو مع أحد من شيوخك توكيل من السماء؟

وجاء صوتك واهنًا:

- لا.

فقمت، وفردت جسدي، وأمسكت السور بكلتا يديَّ، وصرخت بكل ما أوتيت من قوة:

- إذن، فليكمل العقل المسيرة مع الوحي.

لم أسمع لك ردًّا، فواصلت:

- عد إليَّ يا ولدي.

لكن صوتي ضاع، وضاع صوتك أيضًا، فلم أعد أسمعه، حتى قرقعة قدميك تلاشت في صفير الريح بمدخل البناية العتيقة. وفي اليوم الثاني كنت أنا في طريقي إلى مستشفى قريب، لأجبر كاحلي المشروخ، بينما كنت أنت في طريقك إلى الجبال البعيدة، التي تسللتها «حسن» قبلك بسنين طويلة، وتركت لي وقتا كافيا لأستعيد هذا الحوار، وأضيف إليه من قريحتي، وكأنني أحاول أن أقنعك عن بعد بما لم تقتنع به وأنت أمامي، عيناك في عيني، وفمي في أذنك.

العتبة الثالثة عشرة

العازف الذي تتمدد على أوتار قلبه ربابة أكبر منه عمرًا، يوقعه المدعي الكاذب في نار الحيرة، فتأخذه أنت إلى رحلة قصيرة، تتساقط فيها الحروف فوق رأسيكما، ويعود منها منشرح الصدر، فتصدح موسيقى، تخرج من فوهات داره، وتنساب في الشوارع والحارات لتروي نفوسًا عطشى.

اترك خلف ظهرك، يا ولدي، ستة بيوت، متفاوتة في العرض والارتفاع، ستجد البيت الذي تسمع فيه ما تصفه دومًا بأنه عزيف الشيطان. كنت تأتي من غرفتك غاضبًا، وتطلب مني أن أخفض صوت التسجيل المترنم بربابة الشاعر وهو يشدو بالسيرة الهلالية في الأفراح والليالي الملاح، ولم تكن تدري وقتها أن الذي جعلني أهيم بالرباب هو صاحب هذا البيت البسيط.

كنت آتيه أيام وجعي فيجر الربابة ويسكب في أذني موسيقى حزينة، ولأن «ما زاد عن حده انقلب إلى ضده»، فقد كان أسى العزيف يخالط مرارتي، فيسوقني إلى الراحة. وكانت راحتي تزداد حين يغني لي مواويل من تأليف جدي، ثم يهمس في أذني مبتسمًا:

- أوجعته «روزالين» فأبدع.

لن تجد «صفوان» صاحب البيت، في الداخل، فهذه هي الساعة التي يجلس فيها على صهوة جرف يعتلي النهر، عيناه ذاهبتان إلى

الشمس المجروحة تحت الغيم والشفق، ويداه على ربابة مستندة إلى كتفه اليسرى، يحركها فتندلع الموسيقى، تحوم حوله، ثم تتهادى إلى الماء، وتسبح إلى الجزيرة النائمة في قلب النهر، فترقص العصافير.

حين يفرش الليل أبسطة الظلام على المياه، ينهض، ويفتح أنفه على قدر استطاعته، ويسحب من الهواء النقي، من دون أن يهز رأسه حتى لا تسقط الموسيقى من أذنيه. يفرش السجادة البالية التي يضعها في جراب الربابة على النجيل الأخضر ويصلي المغرب، ثم يعود على مهل.

لو بقينا هنا يا ولدي ساعة على الأكثر فقد تراه. وحين تحط عيناك على وجهه الهادئ سيزول عنك غضب منه، وستوقن أن الأصوات الجميلة التي تصدرها الآلة الراقدة تحت إبطه، تحرسها الملائكة وليست الشياطين. فقط عليك أن تنصت إلى مشاعرك، وتستجيب لأوتار قلبك، وتغمض عينيك وأنت تتابع شدو الربابة.

ويمكننا يا ولدي أن نفتح أمام «صفوان» باب الحوار الذي دار بيننا في تلك الليلة البعيدة. هل لا يزال رأسك يحمل ما قلته لك؟ لم أشأ وقتها أن أزيد من غضبك، وأغلقت «الكاسيت» دون أن تفارق الابتسامة شفتيَّ، ونظرت إليك طويلًا، وسألتك:

– على أي أساس تُحرم الموسيقى؟

المعازف صوت الشيطان، ومَن يسمعها سيُصب الآنك في أذنيه يوم القيامة.

– من أين أتيت بهذا الكلام؟

– نقله شيخنا من كتاب «المغني» لـ «ابن قدامة المقدسي».

– وهل ابن قدامة إله؟

– لا.

– نبي؟

– لا.

– معه توكيل من السماء؟

– لا.

يومها قهقهت حتى ارتجت اللوحات المعلقة على جدران الغرفة، ولما رأيت الغيظ ينمو في عينيك، أرسلت إليهما ابتسامتي فمسحت بعض الاحمرار الناشب في جنباتهما. اقتربت منك مطمئنًا؛ لأنني أبوك، وأردت أن آخذك في حضني، لكنك نفرت مني، وقلت:

– أتهزأ بكلام العلماء؟

فابتسمت وسألتك:

– هل تعرف أن الفقيه الكبير «أبو نصر الفارابي» هو مخترع آلة القانون؟

ووسط الدهشة التي غطَّت ملامحك، عاجلتك بسؤال آخر:

- ألم يذكر أمامك أيٌّ من شيوخك أن «أبو حامد الغزالي»، الذي يصفونه بأنه حجة الإسلام قد قال: مَن لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج ليس له علاج؟ أم أنهم ينتقون ما يفسدون به عقولكم؟

فهززت رأسك نافيًا أن تكون قد سمعت هذا الكلام من قبل، وطلبت مهلة لتعود إلى الشيوخ، فأخذتك من يدك، ودخلت غرفة مكتبي الصغيرة، وطلبت منك أن تمد يدك إلى كتاب ذي جلد أخضر سميك، فأتيت به، وقلت لك:

- هذا «إحياء علوم الدين» ستجد فيه ما قلته لك. قلِّبه على مهل، وفتش في غيره من هذه الكتب، لتجد ما يخفيه عنك شيوخك، وقد تكتشف أنهم مجرد ناقلين لهذا الكلام الراقد في بطون الورق القديم، يرددونه كالببغاوات، وعندها قد تعيد النظر في كل شيء.

لكنك لم تفعل، وتفوهت بجملتك المعهودة: «من لا شيخ له فالشيطان شيخه»، ولا أعرف من أين أتيت بهذا الكلام، الذي اخترعوه ليصيروا أوصياء على عقول الناس. ولم تكلف نفسك أن تكون مثل «صفوان» الذي جاءني ذات ليلة في الزمن القديم، وأنا طالب في الجامعة، كان مخطوفا، زائغ البصر، شفتاه مقددتان من فرط الأسى. جلس إلى جانبي صامتا، ثم فجأة وخزني بسؤاله:

- هل عزف الرباب حرام؟

فرفعت رأسي مندهشًا:

- مَن قال هذا الكلام الفارغ؟

- الشيخ «حسن».

قهقهت، وضربت كفًّا بكف، وقلت:

- «حسن» البصباص أصبح شيخًا.

- أمسك الربابة بيده وكاد يكسرها وهو يقول: «تغيير المنكر فرض».

«صفوان» الفلاح البسيط أهداه عقله إلى الشك في كلام «حسن». قاس ما قاله له على ما يعرفه عنه، ولم يصدقه، وسعى إلى أن يعرف الحقيقة. كنا في الصيف، وجلسنا نطلق أصواتا في النسائم السخية التي رفرفت لها شواشي النخيل، فكان كلامنا يرتد إلى آذاننا هسيسًا. قلت يومها رأيي لـ «صفوان». مجرد رأي من معين فلسفتي الخاصة، أو رؤيتي للحياة، لكنه أراد برهانا من كلام قديم مثل الذي سمعه من «حسن» فكان عليَّ أن أذهب معه في اليوم التالي إلى مكتبة قصر ثقافة مدينة «المنيا».

في الطريق قابلنا «أبو سعيد»، كان يدندن بمقطع من سيرة بني هلال. نظرت إليه وقلت لـ «صفوان»:

- هل رأيت في بلدنا أتقى من هذا الرجل؟

- لا.

- ها هو يغني بصدر منشرح.

- لكنه لا يعزف.

وصمت قليلًا ثم واصل:

- «حسن» قال لي إن الغناء أو الإنشاد بلا معازف لا حرام فيه.

زفرت من الغيظ وسألته:

- وهل تصدقه؟

- لا أصدقه ولا أكذبه .. أريد أن أعرف. «حسن» يردد ما سمعه من شيخه، أنا لا أثق فيه هو لأني أعرفه جيدًا، لكن ربما يكون شيخه محل ثقة، ولا أريد أن أغضب ربي.

- الله جميل يحب الجمال.

- ضميري يوجعني وآن له أن يستريح.

- استفتِ قلبك وستجد ما يفرحك.

- استفتيته لكنني أريد أن أزيده اطمئنانا.

ونحن في الطريق إلى المكتبة غرقت في تفكير عميق حول ما دار مع «صفوان» من حوار، حتى نسيت أنه يمشي بجانبي، ويستعد

إلى أن يتعتع في سطور كتاب قديم، متسلحًا بالحصيلة البسيطة التي حازها رجل تسرب من الصف الرابع الابتدائي. وقفزت الأسئلة إلى رأسي تخزني بإبر دفنوها دقائق في نار تلظى. من أين لهذا الرجل بهذه الحكمة التي لا أجدها عند كثير من زملاء الجامعة؟ هم يحفظون ما يقال لهم في قاعات المحاضرات عن ظهر قلب ويتسابقون في ترديده، وأساتذتهم الذين ليسوا أحسن منهم حالا، يقيمونهم على قدر ما استقر في ذاكرتهم، لا وفق ما فهموا أو وعوا، ويا ويل من فكر في أن يراجع وينقد ويبحث عن مسارب أخرى ليسلكها نحو الحقيقة. وهؤلاء ليسوا الأسوأ حالًا، بل هناك مَن جذبتهم الجماعات الدينية التي تتشظى كالأميبا، ثم مدت مخالبها وأمسكت بأمخاخهم وعصرتها بقسوة فتساقطت كل الملَكات إلا ملكة التذكر، ثم راحت تحشيها بكلام عفا عليه الزمن، ولا يشد إلا إلى الوراء. كيف لهذا العازف الذي ينقل عينيه ولسانه بصعوبة بين الحروف أن يطلب مني ما لم يطلبه زملائي الذين يركضون فوق السطور؟

وقد كانت لهذه الرحلة، يا ولدي، أثر هائل في نفسي وعقلي، إذ كنت أستعيد الطاقة المفرطة التي هزتني وأنا جالس إلى جانب «صفوان» وهو يقلب صفحات الكتب، كلما كنت مُقدِمًا على إعداد دفوعي في أي من قضايا الرأي التي ترافعت فيها منتشيًا، خاصة تلك التي اتهم فيها أمثالك رواتيًا بأنه يدعو إلى الإلحاد والرذيلة.

في بداية رحلتي كنت أرتاد المكتبات العامة، أجلس فيها ساعات طويلة، لأجهز ردودي العميقة، حتى صار ما أكتبه أشبه بدراسات مطولة. ولمَّا أصبح بإمكاني أن أشتري هذه الكتب، وأحملها معي إلى بيتي، ولما صار لي مكتب خاص، تراصت الكتب على أرفف خشبية متينة، صنعها لي نجار ماهر، وكنت طيلة الوقت أتنقل بين صفحاتها، وصفحات قانوني العقوبات والإجراءات، والدستور.

ومع توالي المرافعات أخذت الصحف تنشر مقتطفات مطولة منها، وأحيانًا كانت تنشرها كاملة، فتحدث جدلًا عارمًا، وبعد فترة بدأ بعضها يطلب مني أن أكتب مقالات عن حرية التعبير والإبداع والاعتقاد، وبهذا نشبت بيني وبين شيوخك معارك طاحنة، وفي ركابها خططوا ليخطفوك مني. لكن كل ما فعلوه لم يجعلني أبدًا أنسى هيئة «صفوان» وهو يمشي إلى جانبي مرحًا في رحلة الذهاب إلى مكتبة «قصر الثقافة».

يومها سألته عما يدور في رأسه، فضحك طويلًا، وعدل طاقيته التي اهتزت، وقال:

- العلم في الراس مش في الكراس.

فوكزته في جنبه بلطف:

- إذا كان الأمر كذلك فلِمَ تتعبني معك وتأتي بي لنفتش في الكراريس؟

فوقف فجأة، وأمسك بكتفي وقال:

- سأعرف رأي الشيوخ القدامى، وسأعود لأستفتي قلبي، وأنظر فيما يملأ أفواه أولادي الذين ينتظرون الأفراح حتى يحل في جيب أبيهم ما يأتي إليهم بالطعام.

فرفعت يديه من على كتفي وقلت له:

- يؤتي الحكمة مَن يشاء من عباده.

دخلنا المكتبة، وجلسنا في بقعة النور التي تهديها الشمس من نافذة نصف مفتوحة، وجاء أمينها، مستفسرًا عما نريد، فطلبت منه «إحياء علوم الدين» و«مقدمة ابن خلدون» و«المغني»، فهز رأسه وسأل:

- أي أجزاء؟

- كلها.

فأشار بيده لنا فوقفنا، وسرنا خلفه، حتى وصل إلى رفوف عريضة عليها كتب ذات جلود خضراء وبنية وسوداء وحمراء وقال:

- طالع ما تريد، واتركه مكانه على الطاولة.

ورحت أقلب الصفحات، وعينا «صفوان» تتابعان الصفحات، حتى وصلنا إلى ما نريد. لم ننقل شيئًا، لكننا كدنا نضع خطوطًا تحت سطور كثيرة، لنتساءل عما ورد بها. في نهاية المطاف اطمأن

«صفوان» إلى جمال وحلال ما يفعله، وفي الليل سهرنا على شدو ربابته. شدا أجمل من أي مرة مضت، كان يحرك القوس على الوتر وعيناه مغمضتان، تنسل منهما بعض دموع ساخنة، ورأسه يتحرك يمنة ويسرة جذلًا.

تقدمت السنين، وتضاءلت الأفراح، وأصبح ما يقام منها يعتمد على أسباب أخرى للطرب بعيدًا عن الرباب والسيرة الهلالية، لكن بقي «صفوان» مخلصًا لآلته التي يطحن بها ما يملأ رأسه من جمال فيتدفق على حجره موسيقى عذبة شجية، تتمايل لها جذوع من ظلوا مخلصين لعطايا الزمن القديم.

أما أنا يا ولدي فقد ابتعدت عن شدو الرباب، وأخذتني المدينة بموسيقاها المختلفة، لكن الحوار الذي دار ذات يوم بيني وبين «صفوان» ظل عالقا في ذهني لا يبرحه، وكنت أستدعيه أحيانا لأقول للناس في اطمئنان:

- في بلادنا أميون يفكرون بطريقة علمية، ومتعلمون لا يعرفون كيف يفكرون أصلًا.

وحين غرقت أنت في أمواج السلفية المتلاطمة كم تمنيت أن يأخذ الله منك كل ما درسته في الجامعة، وكذلك ما حشى به الشيوخ رأسك، ويمنحك رأس «صفوان» وربابته.

العتبة الرابعة عشرة

الرجل الذي يخرج الدخان من أنفه وأصابعه ويصادق القادمين من عالم الغيب، ستقصده أنت ذات ليلة لتنزع الشوك من صدرك، والحنظل الراقد في فمك، لكنه سيهديك تحت سقف العتمة حزمة من الشوك، وكومة من الحنظل، وستسمع عنده صوتي، الذي أودعته في رحاب الدنيا، بعد أن فارقتها بزمن طويل، فتستعيد الإحدى والعشرين عتبة من جديد، لتمضي نحو حضور الغياب، وغياب الحضور.

هـا أنـا أقطـع خطواتي علـى قطع الموسـيقى الآتيـة من جوف الزمـن البعيـد، فاخلع نعليك معـي، يا ولدي، حتـى لا تجرح هذا الجمـال. أراك قد غضبت، وذهب ذهنك في اتجاه لم أقصده أبدًا، لكـن لا وقت للجدل بيننا، وإذا أردت أن أريحك سـأقول لك: بل البـس نعليـك وازرع فـي باطنه المسـامير لتدمي بـه رأس صاحب الدار المطليـة باللـون الأصفـر، الواقفـة هنـاك عند انحنـاء ذراع الشـارع الذي نسير فيه ويمده إلى الشـارع المتعامد عليه ليحضنه في هدوء شديد.

ستسأل:

- لماذا هذا فقط الذي أردت أن أؤذيه من كل أصحاب البيوت التي مررنا بها؟

وسأجيبك:

- لا أريد أن أؤذيه، لكنني أردت أن أبيّن لك فظاعة ما يفعله الرجل، ربما تنبئك بفظاعة ما فعلته أنت، أو ما يفعله شيوخك.

أرى العجب قد زحف على ملامحك يصطحب معه بعض الغضب المكتوم. لكني أثق في أن ما سأقوله لك قد يفرحك! لأنك ستكتشف أنني أتفق معك، ربما للمرة الأولى، أو لواحدة من المرات القلائل التي تطابق فيها ما نذهب إليه سويًّا. لكن أرجوك لا تقف عند القشور حتى لا نفترق سريعًا، بل انفذ معي إلى لباب الأمر، لندرك أن بيننا مَن خطف بعض ما أهدته لنا السماء ودسَّه في جيبه، نقودًا ومجدًا ورهبة.

اقترب معي، وافتح منخارك الذي زحف عليه شعر لحيتك من اليمين واليسار حتى كاد يحجب عنه الهواء، لتشم تلك الرائحة التي بدأنا ندخل حيزها النفاذ. أراك تتساءل: «أي رائحة هي؟»، إنه بخور الشيخ «غندور». يسمونه شيخًا هنا أيضًا. هو على غير هيئة شيخك، شكل مختلف وكلام به بعض اختلاف، لكن الفعل واحد، وإن تباعدت الأهداف شيئًا ما.

أتمنى لو وجدناه في البيت، فإطلاق البخور لا يعني بالضرورة أن مَن رماه فوق الجمر الصافي يجلس أمامه. فهو كثيرًا ما يترك صالة البيت سابحة في الدخان ويخرج ليلعب الدومينو في غرزة «صبيح». حين يربح يقول الناس: «طبيعي أن يعرف الساحر ما في يد منافسه من أقشطة»، وإن خسر قالوا: «يخزي العين». هو في كل الأحوال يقول لهم: «هذه نقرة وما يجري أمام البخور نقرة أخرى، هذا حظ وذاك معرفة».

لم تكن الخسارة تعنيه أبدًا، فما سيدفعه من نقود لقاء ثمن المشروبات التي احتساها هو ومنافسه والمتفرجون كان قد حصل عليه من جيب أحدهم، اليوم أو أمس أو قبل ذلك بقليل أو كثير. فما من شخص في هذا البلد، كبر أو صغر، إلا وقد مر عليه. في الطهور، والزواج، والنكد الأسري، والبذار، والحصاد، واستمالة العشاق، واسترجاع الغائب، وحماية الذرية، يكون حاضرًا، بأحجبته التي يطويها على شكل مثلث متساوي الأضلاع، بعد أن يحشي جوفها بحروف مبهمة مكتوبة بقلم أحمر، وهو يتلو آيات من القرآن، ويقطعها بكلام غريب، ينساب من لسانه في لحن عجيب، يأخذ برؤوس الجالسين أمامه.

أراك مشمئزًّا يا ولدي، وأعرف سر انكماش خديك، وزمة شفتيك، وضيق عينيك، ورغبتك في التقيؤ. لكن هذه هي الحقيقة. كثيرون تنتابهم هذه المشاعر، إلا أنهم في النهاية يأتون إليه طائعين. الوحيدة التي اشمئزت ولم تنتظر منه شيئًا كانت الشيخة «زينب». والوحيد الذي تجاهله طيلة حياته كان «أبو سعيد». وكلما سأله الناس عن سر استغنائه عن خدمات «غندور»، كان يقول:

- لا ينفع، ولا يضر مع اسم الله شيئًا، وأنا أُحصِّن نفسي وأهلي بالقرآن والدعاء.

سأله الناس عما يتلوه وما يدعو به، فقال لهم كل شيء. فقلدوه لكنهم لم يفلحوا، وحين عادوا إليه ليسألوه عن سبب إخفاقهم قال لهم:

- ألسنتكم مملوءة وقلوبكم خواء.

ثم صمت برهة، وقال:

- لا ينفع الدعاء إلا ذا يقين.

يقال إن جدي لجأ إلى واحد مثله في قرية مجاورة كي يحنن قلب أبيه، فيوافق على زواجه من «روزالين». مرات يذهب إليه بيدين مملوءتين ويعود فارغا، ليس معه سوى بضع كلمات يبقيانه على أمل، راح يترنح بمرور الأيام حتى مات تمامًا. كان العراف يطمئن جدي إلى أن كل شيء سيكون على ما يرام، فلما ضاعت منه «روزالين» كره كل العرافين. كان في آخر أيامه حين بدأ «غندور» لعبته، فوقف في وجهه. حاربه بكل قوة، لكن العمر كان قد فات، خانته قدماه فسقط في منتصف الطريق. واستغل «غندور» موته ليقول لأهل القرية:

- هذا جزاء مَن يحارب الله ورسوله.

وسمعه «أبو سعيد» فابتسم، وهز رأسه مستنكرًا:

- وهل أنت الله أو رسوله؟

قرأ «غندور» في بجاحة:

- نحن حملة العلم، ورثة الأنبياء، وأولياء الله الذين أطلعنا على بعض الغيب.

ووقف «أبو سعيد» وقال وهو يكظم غيظه:

- لا تزكي نفسك.

ثم مضى وهو يتلو: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾.

لا أزال أتذكر هذا الحوار. كنت يومها في ريعان الشباب، الذي كان «غندور» أيامها قد فارقه منذ سنوات قليلة، وكنا نجلس أمام المسجد قبيل الغروب. الشمس تحط على ماء البركة التي تمتد تحت البيوت وتنعكس على وجوهنا فترشف حمرة راحت تزداد دكنة حتى غابت مع سقوط قرص النور الكبير خلف الأشجار والنخيل على الجسر الذي يعتلي البركة.

أما العمدة «حيدر» فله أيام عربدته مع «غندور» حكاية لا تنسى. فذات ليلة أخذه وصعدا الجبل، سعيًا وراء كنز ثمين أنبأه تجار الملح بأنه مطمور تحت صخرة عملاقة انفلقت من الجبل الشرقي،

وساقت تحتها وحولها السيول آلاف الأطنان من الرمل والحصى، لتردم قرية فرعونية كانت تعج بالحياة في القرون الغابرة.

كتم العمدة خبر الكنز عن أهل القرية جميعًا رغم ثرثرته، وباح به «غندور» مع أن الكلام كان لا يجري على لسانه إلا قليلًا وبحساب شديد، ربما لطبع فيه أو لرغبته في أن يلف نفسه بكثير من الغموض المذهل. ربما باح وثرثر هذه المرة لأنه أراد شهودًا على ما سيفعل، حتى لا يهضم العمدة حقه إن وجدا الكنز.

ركبا حصانين مطهمين من إسطبل العمدة الكبير، وساقا وراءهما جملًا ليأتي حاملًا ما يعثران عليه، وأخذا معهما ماءً وزادًا، وعلفًا للدواب، وكل أنواع البخور التي طلبها «غندور»، وبندقيتين آليتين، وصندوق ذخيرة. وعادا بعد أسبوع، ليقول العمدة للناس عن شريكه في الرحلة:

-أعيته الحيل، وبدا عاجزًا، فما سعينا إليه أكبر من طاقته.

ورد «غندور» هامسًا في آذانهم:

-أخبرني رهط من الجن أن العمدة سيصوب رصاصة إلى رأسي بعد أن أخرج له الكنز، حتى يموت السر معي، فأظهرت له عجزي، وأفهمته أن بوسعي أن أنجح في المرات القادمة، لأنجو بنفسي.

ورمى «غندور» الخبر عند أثرياء القرى المجاورة، فزاروه ليلًا، وأخذوه ليغيب أيامًا، ويعود ولا أثر للنعمة عليه أبدًا، لكنه حرص على ألا يغلق باب الأمل في عيون الطامعين، فبقي زمنًا في محط أنظارهم، وهم متقلبون بين اليأس والرجاء.

لم يكن «غندور» عرافًا أو ساحرًا فقط يا ولدي، بل كان يحفظ نصف القرآن أو ثلثه، ويطلق صوته الندي في المآتم، فيردد الناس وراء كل آية يتلوها: «الله الله.. الله يفتح عليك يا مولانا».

وكلما سأله أحدهم:

- كم تحفظ من القرآن؟

يرد في ثقة، يحسد عليها:

- أحفظه كله على أصناف قراءاته، ومعه الأحاديث القدسية، ونصف كتاب «البخاري» على الأقل، وألفية «ابن مالك»، وكتاب تفسير الأحلام لـ «ابن سيرين».

وهدد الناس إن استعانوا بمقرئ غيره من القرى المجاورة أن يريهم شرَّ سحره، فلم يبقَ أمامهم سواه، وغفر له عندهم حلاوة صوته.

لكن رزقه الأكبر كان يأتيه أيام الأفراح. فكل عريس لا يدخل بعروسته إلا إذا ذهب هو أو أحد من أهله إلى بيت «غندور»، ودس

في يده ما يطلبه من مال، حتى يتفادى الربط ليلة الدخلة، وما أقساه على الرجال.

أحدهم تمرد يومًا على هذه العادة السيئة، وقال أمام الناس:

- فحولتي تغنيني.

لكنه رقد إلى جانب عروسته الجميلة ثلاث ليال، يدس عاره مرتخيًا بين فخذيه، ويكفكف دموعه، ويعض على أصابعه ندمًا، وذهب أبوه إلى «غندور» لكنه اشترط حضور العريس بنفسه، فسار إليه مكسورًا في جنح الظلام إلى جانب جدران البيوت، فلما طرق الباب أتاه صوت «غندور» زاعقًا في صلف:

- تعالَ ظهر الغد.

وطلب «غندور» من زوجته الدميمة أن تنشر الخبر في كل البيوت، فتجمع الناس تحت الشمس الحارقة ليروا العريس ذليلًا، ينقل قدميه في أسى نحو رجولته.

من يومها رضخ الكل له، ولم تفلح معهم أقوال بعض المتعلمين، وأنا منهم يا ولدي، من أن الخوف والرهبة والهواجس التي تملأ النفوس من سحر «غندور» هي التي تقف وراء عجز العريس الجديد، وكل مَن سبقوه على طريقه. الوحيد الذي أخذ مما قلناه وأضاف على ما في رأسه كان «أبو سعيد»، وحين سأل

الناس «غندور» عن تمرد الرجل، قهقه حتى بانت أسنانه المثرمة، ثم زفر وذكر اسمه مصحوبًا بشخرة طويلة، وقال:

- جاءني قبل سنين فحصَّنته من كل مكروه، ودفع لي ما يغطي حاجته وأولاده إلى مماتي.

وصرخ «أبو سعيد» فيهم:

- «غندور» كذاب.

وراح يدعو على آذان الناس المتحلقين حوله عند المسجد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال، اللهم إني أعوذ بك من الفقر والعيلة، وأعوذ بك من كل بلية، اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، ومن الخوف إلا منك، وأعوذ بك أن أقول زورًا، أو أغشى فجورًا، أو أكون بك مغرورًا، وأعوذ بك من عضال الداء، وخيبة الرجاء، وشماتة الأعداء، وزوال النعمة، وفجأة النقمة، اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق، وهم الرزق وسوء الخلق، آمين آمين يا أرحم الراحمين».

لكن الناس لم يكن لديهم استعداد لتكذيب أنفسهم، وتبكيتها بعجزهم عن مواجهة «غندور»، فلم يصدقوا «أبو سعيد» في هذه،

رغم أنهم صدقوه في كل شيء قاله أو فعله. حتى جدي الذي جرّبه كذب بعض قراء الطالع من السحرة ومخاوي الجن، قال للناس:

- أبو سعيد يبالغ في قدرته.

الآن صار «غندور» متهالكًا، عظمًا بلا لحم، وضعف بصره حتى بات لا يرى أمامه سوى بضع خطوات، ويسعل طول الليل، ويكاد قفصه الصدري يتهتك وهو جالس يشفط بنهم من الجوزة. وعلى قدر ما دخل جيبه من نقود بقي حاله من دون أي تغيير يذكر. سافر الفلاحون إلى بلاد النفط، وهدموا بيوت الطمي، ونصبوا مكانها حوائط الطوب الأحمر والأحجار والأسمنت، كما رأيت في كل البيوت التي مررنا بها يا ولدي، وتركوا بيت «غندور» شاهدًا على ما هو عليه، وعلى الزمن الذي بدأ منه، واستقر فيه لا يبرحه.

بعض الناس تهامسوا:

- فلوسه حرام فلم يبارك الله فيها.

وقال شيخ الجامع بعد أن شرد قليلًا وهو يحرص على ألا يصطدم بـ «غندور»:

- إذا أحب الله عبدًا وسَّع له في داره.

وفهم الناس ما يريد أن يقول دون أن يتورط في أي شيء.

أما «غندور» فكان يرد على كل مَن يسأله عن هذا:

- أخي من مملكة الجان العظيمة تروق له حوائط الطين، والطلاء الكالح، والنخلتين الواقفتين في باحة الدار، وتحتهما زير عتيق، ينبت تحته وحوله النجيل فيمد بساطه نحو باب الغرفة الوحيدة.

وحين شكك الناس في أن يكون هناك جني يهوى الفقر، قال لهم:

- زهق من سكنى القصور الفخيمة المبنية بطوب من ذهب في مملكتهم البعيدة، ويأتي عندي ليعيش حياة مختلفة.

ثم يضحك، ويمسح وجوه مَن يتابعونه ليرى مدى تصديقهم لكلامه، ويكمل:

- مزاج غريب، لكن ما باليد حيلة.

ولم يكن «غندور» يكذب في كل الأوقات، فأحيانا كانت نبوءته تصدق، دون أن نعرف إن كان صدقها راجعًا إلى ما أهدته إياه كتبه القديمة أو صاحبه من الجان، كما يزعم، أم أنه محض توقع، يمكن أن يهتدي إليه أي إنسان عاقل. فمرة قال لـ «سلوى» بكل ثقة: «لا تتعبي نفسكِ، زوجكِ لن يعود، ولحمه إلى تراب غريب، وسيغمض عينيه على حمم من نار». يومها لعنته في سرها، ولم تجرؤ على أن تُسمعه ما دار بخلدها خوفًا من سحره الأسود.

ومرة قال لـ «عطا الله»: «سيأتي إليك مَن طردوك، يعتذرون ويعوضونك عما ضاع منك، ويختلط ماؤهم بزرعك، ويجتمع الشمل بعد فراق طويل». وحدث أن جاء أهله إلى القرية بعد سنين طويلة من ضياعه وهروبه واغترابه، وتزوج واحد من أبنائهم بنت «عطا الله» وجاء الأحفاد.

هاتان الحكايتان دفعتاني ذات ليلة إلى أن أقصد بيت «غندور». كنت في زيارة لقريتنا بعد غياب دام سنتين، وكنت أنت تائهًا في الجبال البعيدة. تركت أمك تحفن دمعها وتسكبه حولها، وجئت لأشم أي رائحة من زمني الجميل. وعلى العشاء جاء أهلنا على ذكر نوادر «غندور»، فعرفت منهم ما قاله لـ «سلوى» و «عطا الله». لا أعرف ساعتها هل وسوس لي شيطان نفسي، أو قريني الذي يركب روحي، أو إبليس اللعين، وربما هي رغبتي في كشف غامض يأكل روحي وجسدي كل يوم بلا رحمة؟ فأنا إنسان مكلوم، يسعى وراء أي شيء يمكن أن يأتي إليه بطرف من خبر ابنه الغائب.

اشتريت ورقة معسل سلوم من الكبير المفتخر وطرقت باب «غندور». حين فتح لي ورآها في يدي أشرق وجهه في عتمة الباب، وأفسح لي مكانًا إلى جانب الجوزة، على كليم قديم تآكلت أطرافه، وصنعت الجمرات المتساقطة ثقوبًا في منتصفه. قبل أن أفتح معه أي نافذة للكلام، وجدته يسألني عنك:

- هل من شيء عن ابنك الغائب؟

- انقطعت أخباره.

فشفط من أنفاس الجوزة ثلاث شفطات، وشرد قليلًا، ثم عاد إليّ:

- هو حي يرزق.

امتلأت نفسي أملًا، واقتربت منه حتى كدت أعانقه، وقلت بلا تردد:

- الله يسعدك يا «مولانا».

هكذا وصفته، يا ولدي، في تلك الليلة، ولا تغضب مني، فأنا كنت مستعدًّا أن أمنح روحي لمن يأتيني بأي شيء عنك، بيل ريقي. هذه مشاعر لا تعرفها أنت؛ لأنك لم تصبح أبًا في يوم من الأيام. وعندما كنت في مثل سنك أو أقل من هذا بكثير كنت أستهين بخوف أبي وأمي عليَّ، وأصرخ في وجهيهما: «لست طفلًا صغيرًا». لكن ها أنا قد عرفت سر جزعهما عليَّ حتى وأنا في ريعان شبابي، وقادر على أن أقرر مصيري. فاضت مشاعر الفرح فناديت «غندور» بـ «مولانا»، ليس عن نفاق، فأنت تعرف أن أباك لا ينافق أحدًا، وربما هذه هي الصفة الإيجابية الوحيدة التي أخذتها أنت عني، وأسقطت البقية، لكن عن فرح طار له عقلي، ونسيت معه أي ضغينة حملتها لـ «غندور».

حين أخبرني «غندور» أنك حي، كنت أعاني من كوابيس رهيبة، يتصبب لها عرقي، ويجف ريقي، وتنهمر دموعي، وتستيقظ أمك مفزوعة، فأخفي عنها ما رأيت حتى لا يقتلها الغم، ورأيت في قوله ما قد يذهب عني الكوابيس، ويدخل بعض السرور على قلب أمك، ولهذا اندلعت مني فرحتي فلم أقدر على لملمتها.

وزادت فرحتي حين أطرق «غندور» في شرود جديد، طال هذه المرة، وكان يغمغم، ويكلم أحدًا لا أراه، ثم نظر في وجهي مبتسمًا:

- ابنك يحمل بندقية على كتفه، ومخلة على ظهره بها زمزمية ماء وطعام، وعلى رأسه طاقية صوف لم أرها على أحد في بلادنا، وفي رجله حذاء من الجلد الصلد. أراه الآن يتسلق جبلًا وعرًا مع شروق الشمس ليختبئ مع إخوانه في كهف مظلم حتى يأتي الليل من جديد فيواصلوا القتال.

لم أعتنِ بما قال، فهذا ما يعرفه كل الناس عن المجاهدين في «أفغانستان» لكن ما أردت أن أعرفه:

- هل هو سعيد؟

هكذا سألته عنك وقلبي يخفق بسرعة، ويخالط وجيبه قرقرة الجوزة.

هز رأسه:

- فرح بحاله، لاسيما أنه بالأمس اصطاد ثلاثة جنود روس.

وجاء السؤال الحاسم الذي كنت أخشاه:

- هل سيعود؟

سكت طويلًا، ولم يُجب، ثم غيَّر دفة الحديث، وفتح باب النميمة على العمدة «حيدر»، و«أبو سعيد» وحتى الشيخة «زينب»، أتى على ذكرها رغم رحيلها عن الدنيا. ولم يسلم أحد من لسانه، حتى شقشق النور، ونضح من فتحات سقف الجريد والطين، وسقط على وجهه، فغبيه قليلًا بدخان كثيف من فمه ومنخاريه، ثم تثاءب، وقال:

- حان وقت النوم.

لكنني لم أتركه يهرب، وضيقت عليه الخناق، فعاد إلى صمته، وكركرة الجوزة، ثم ابتسم وقال:

- في الليلة المقبلة ستسمع مني.

رميت جسدي في الغرفة المظلمة، التي تحوي السرداب، الذي يطبق على خطابك الوحيد، ولم يزرني النوم إلا قبيل الظهر، وتدفق شخيري من النافذتين الصغيرتين اللتين صنعهما أبي لينفذ منهما أي نور يبدد ظلمة الغرفة، لكن الشمس لم تكن ترسل أشعتها إليهما إلا ساعة من نهار، ثم تلملمها سريعًا، فتمد بقايا الليل ساقيها السوداوين، وتتربعان فتملآن الغرفة.

نهضت بعيد العشاء، صليت ما فاتني من أوقات، ودفنت قدمي في مركوبي، وزحفت إلى بيت «غندور». ما إن طرقت الباب، حتى جاء صوته من الداخل:

- تعالَ يا «فهمي أفندي».

ولم أتعجب كيف عرفني، وأنا لم أتفوه بكلمة واحدة تدله على صوتي، ولم أكن قد زرته سوى مرة واحدة حتى يحفظ طريقتي في طرق الباب، فـ«غندور» كان عنده مَن ينبئونه بأشياء كثيرة. كان يكلمهم وقت أن أزحت الباب قليلًا، على قدر جسمي، ودخلت في هدوء، ملفوفًا في دخان البخور، بروائحه النفاذة.

أشار بيده لي أن ألتزم بالصمت، فبلعت لساني، وسرت على أطراف أصابعي، حتى وصلت إلى جانبه. مددت يدي في هدوء حتى يرتخي جسدي على الحصير البلاستيكي الأخضر، المملوء بثقوب سوداء صنعتها الجمرات الصغيرة المتطايرة من «الجوزة».

نظر إليَّ طويلًا، وكانت عيناه مختلفتان عما ألفتهما، اتسعتا كثيرًا، وزاد فيهما البياض، أما اللون الأسود فقد تشرَّب بحمرة داكنة، لا أعرف إن كان من انعكاس نار الجرة التي أمامه، يتقلب فيها بخوره ويحترق على مهل، أم لسبب آخر لا أعلمه. لم أستطع أن أحملق فيه كثيرًا، فارتد إليَّ بصري حسيرًا، وسألته عما يمكن

أن يقول لي في هذه اللحظة عنك، يا ولدي، فابتسم وأنبأني أنني سأسمع بنفسي، ولكن عليَّ أن أنتظر إلى أن يأتي خُدَّامُه من الجان.

وجاءوا بعد وقت لا أعرف مقداره، وعندها أمرني أن أنصت، فمددت بوزي، وأرخيت شحمتي أذنيَّ، وأصخت السمع، وبينما يعض أعواد البخور تطقطق في النار جاءني صوت مدفون في رأسي منذ زمن بعيد، وراحت الدهشة تغزو وجهي حتى انفرجت شفتيَّ عن آخرهما.

كان صوت الشيخة «زينب» تتلو عليّ العتبات الإحدى والعشرين، ولا تزيد عليها حرفًا واحدًا.

العتبة الخامسة عشرة

تكبر شجرة التوت أمام باب الرجل الطيب، الذي يحلم بزمن يرعى فيه الذئب مع الغنم، والعجل مع الشبل، لكن أحلامه النبيلة تذهب سدى، وكل ما يقوله للناس يشعرون كثيرًا أنه بلا جدوى، لكنه يربي الأمل دومًا، فلا يموت أبدًا، بل يجلس تحت الأغصان الهائمة في نسيم عليل ملفوفًا ببقايا الشمس العائدة إلى بيتها، يوزع التوت بيمناه، والرجاء بيسراه.

اقترب مني، يا ولدي، ودع جسدي يستدفئ بجسدك، ليبدد شيئًا من برد الغربة والفراق الطويل. قف بمحاذاتي واجعل كتفك تلتصق بكتفي، وليكن ظهرك إلى جدار بيت «غندور»، ووجهك إلى انحناء الشارع. ارفع بصرك قليلا، وصوبه نحو هامة شجرة التوت العجوز، التي تنيخ على سطح بيت من طابق واحد، مطلي بالأحمر الكالح المزركش بثقوب سوداء متفاوتة الأحجام، خلَّفها انحسار لون الدم عن الطوب اللبن العتيق.

ساكن هذا البيت اسمه «فكري»، وكما يناديه الناس هنا «فكري أفندي»، هو واحد ممن ذهبت أنت لتحاربهم في الجبال البعيدة. لا تندهش، ولا تعض شفتيك غيظًا، وتستعد رغبتك التي لم تهدأ بعد في الانتقام. فالرجل صار هيكلًا عظميًا، يتحسس طريقه إلى المسجد في عناء، يده على الجدران، وفمه يرد السلام على العابرين.

ربما تقول الآن في نفسك: إنه روسي آبق، بقي من أولئك الذين سكنوا مصر أيام علاقتها الحميمة بالاتحاد السوفيتي المنهار في

الخمسينيات والستينيات، لكنه ليس كذلك. إنه مصري، من أب وجد مصريين، بل إن ملامحه الفرعونية، حيث الوجه الأسمر والأنف الذي يشبه نصل السكين والعيون السوداء، تنبئ بأن قدميه مغروستان في طين هذا البلد منذ آلاف السنين. ولا يجمع بينه وبين من ذهبت أنت لقتالهم في «أفغانستان» أصل ولا دين ولا لون ولا صور الحياة المتتابعة بلا هوادة، إنما هي الفكرة، التي كبرت هناك حتى صارت إمبراطورية مترامية الأطراف، وتسللت إلى رأس «فكري» هنا وصارت قضية حياته، ومنحته موقعًا في «الاتحاد الاشتراكي العربي»، الحزب الواحد الذي حكم مصر أيام حكم جمال عبد الناصر.

في أيام مجد هذا الحزب كان «فكري» يختال أحيانًا بما في يده من قوة، لكنه لم يستخدمها إلا فيما يمكث في الأرض، وينفع الناس. طالما جلس على المصاطب في ليالي السمر، وتحدث عن المساواة، التي يجب أن تسود حتى يرعى الذئب مع الغنم، فتحل في كل روح وجسد، وينعم بها الطير الهائم على وجهه، أو الراقد في أعشاشه بين أغصان شجرة التوت التي تعانق بيته.

كان يتوه قليلا ثم يقول لهم:

- «من كلٍّ على قدر طاقته، ولكل على قدر حاجته».

فيسأله «عطا الله»:

- سهلها علينا يا أستاذ.

فيغرف من بئر معرفته العميقة، ويوزع على أفهامهم تبسيطًا لما قال، فينهل كل منهم على قدر ما يسع ذهنه. وهكذا يذهب في الهزيع الأخير من الليل إلى داره وهو سعيد.

لم يكن «فكري» في تلك الأيام رجلًا ثرثارًا، يفرض نفسه على الناس، بل كان يجلس وسطهم كالأستاذ بين تلاميذه، يسألونه وتتناثر التساؤلات، يمينا وشمالا، فيلملمها في راحته، ويفتل منها حبالا متينة متماسكة ومتجاورة، تتمدد في انسياب فتصنع جسرًا يسير عليه الحاضرون، ليقتربوا قليلا من الحقيقة المطمورة تحت ركام هائل من الأكاذيب، والأساطير المعتقة.

لا يبدأ «فكري» بالحديث، بل يغوص في ذاته، منصتا إلى ما يقوله الناس، ويغرس عينيه في ملامحهم، فيدرك أشياء كثيرة عند الكدح، لم يقرأها في الكتب.

وكتب «فكري» لم تكن قديمة مثل تلك التي ينهل منها شيوخك، يا ولدي، الذين يتكلمون بلا توقف ولا يسمعون أحدًا، وأقدامهم مغروسة في وحل سطورها العامرة بالكلمات المهجورة، بل هي كتب جديدة، سطورها واضحة لأنها من أيامنا تلك، وتجيب

عن أسئلة زماننا، وتشعل الشك في الرؤوس حيال كل شيء، إلا أن يكون الكل واقفين على خط واحد، كأنهم صف من شواهد القبور.

لم يذهب صاحبنا إلى «موسكو» أو «بكين» أو «هافانا»، بل هي التي أتت إليه، وحطت على أرفف مكتبته البسيطة، وتركت رجالها يتربعون متجاورين، «ماركس» و«لينين» و«تروتسكي» و«ماو تسي تونج» و«جيفارا»، وقبلها حرص على أن يضع كتاب «الميثاق» لعبد الناصر، وفي صدارة المكتبة وضع «القرآن الكريم» وكتاب عن «أبو ذر الغفاري». وكان يقول لمن يسأله عن هذا:

– لا بد أن يكون لنا طريقنا.

ولأن «جمال عبد الناصر» بُنيت في عهده مساجد في كل مكان، وأطلقت إذاعة القرآن الكريم، ومدينة البعوث الإسلامية، فقد حرص «فكري» على ألا يبعده عن الدين اقتناعه بالشيوعية مسلكا اقتصاديا وسياسيا. وكان يقول في اجتماعات القيادات المحلية لـ«الاتحاد الاشتراكي» عن مركز «المنيا»:

– ما قرأته في الكتب الحمراء أمدني بطريقة أرى بها حقيقة الصراع في مجتمعنا وفي العالم، أما في المسجد فأتوه سابحًا وراء روحي لأرى الكون كله.

وحين صرخ فيه «حسن أبو سرحان» ذات يوم:

– أنت شيوعي كافر.

ابتسم ورد وهو يطالع ملامح الواقفين على ناصية الشارع العريض:

– حتى لو كنا قد صلينا العشاء سويًّا منذ قليل، كتفي بكتفك، ومن لناجيه أناجيه.

كان «حسن» قد تدخل في حوار دار بعد العشاء وامتد بين «فكري» والساهرين، ودفعه بغمزة غير خفيفة في كتفه:

– طلتك قد تبت وأنبت، والآن انكشف ملعوبك، تتقرب إلى الناس بصلاتك، لتجذبهم إلى أفكارك العفنة.

لم أكن معهم وقتها يا ولدي، ولكن تلك حكاية تروى دومًا في بلدنا، وما أعرفه وأشهد به، والله حسيبي، أنني لم أجد أحدًا في قريتنا كلها أخشع في صلاته من «فكري» أفندي سوى «أبو سعيد».

طالما كنت أقابله وهو جالس وحيدًا على شاطئ النيل، تحت الجرف وفوق الماء، في يده صنارة طويلة، وعيناه تتابعان رقص الأسماك على أجنحة الموج المسافر، ويغرق في إنشاد أقرب إلى الحداء:

«زاد في طه مديحي
صاحب الوجه المليح
صاحب العقل الرجيح

ابن زمزم والمقام

من عليه الضب سلم

والحجر حقا تكلم

استمع يا أخي وافهم

للمعاني والنظام»

كان يتسلق شجرة التوت، وقد ربط سلة إلى ذراعه اليسرى، يثبت قدميه في الأفرع، ويمد يديه ليحلب الثمار، التي احمرت حتى اسودت، أو يهزها لتتساقط على بساط عريض من القماش، يكون قد فرشه تحتها، وثبت أطرافه بالأحجار. وحين ينزل بالسلة مملوءة يكون مثل ما فيها قد تناثر ينتظر يديه لتجمعانه، فيأتي بسلة أخرى ويملأها، ثم يجلس على عتبات البيت قبل الغروب، وكلما مر طفل أمامه ناداه، وأعطاه حفنة توت.

أحيانًا كان الأطفال يتكاثرون حوله ويتصايحون، ويحاول بعضهم إزاحة بعض من أجل أن يقتربوا من السلتين، فيتدخل ويهدئ من تشاحنهم العابر، ويقول:

- الكل سيأخذ، التوت يكفي الجميع.

كنت يا ولدي في يوم من الأيام واحدًا من هؤلاء الأطفال، وكنت أحب التوت بلا حدود، ما إن آخذ حفنتي حتى أضع فمي

فيها وأزدرد بلا تمهل، فتسيل على ذقني وصدري خيوط حمراء قانية، يحط بعضها على ملابسي، فيكون نصيبي العقاب من جدتك لاحقًا، أو من جدك ضربًا بالعصا على راحتي. لكن الخوف من العقاب لم يمنعني أبدًا من الذهاب إلى أمام بيت «فكري» أفندي في اليوم التالي.

في هذه الأيام لم أكن أعرف أن هذا الرجل المغطى برؤوس الصغار في بيته كتب، وفي رأسه خبرة إنسانية عميقة، وعلى كتفيه مهمة نبيلة.

في كل أيام طفولتي كنت أقف أمام داره منتظرًا عطاءه من التوت وأنا شاب تعجبه قوته.

وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيته، حين سمعت نشيجًا ونهنهة. طرقت الباب، وكان مواربًا، فرأيته جالسًا على مقعد قديم في الصالة، أمامه مذياع وفوق رأسه طيات من الورق المكتوب، تبرز من كعوب كتب متراصة. وكان معي ابن عمي، طفل صغير وقتها يبحث عن التوت مثلما كنت أفعل قبلها بسنين.

وقفت أمامه، وسألته:

- ما لك؟

مد يده، وأخذ يد الصغير واحتضنه بقوة وقال له:

- ليتني كنت صغيرًا مثلك، لتشرد عني مرارتي سريعًا.

لـم يفهـم، لكن حين عدت إلـى بيتنا، فسـرت للصغير ما جرى، وقابلنا أبي وهو يمسح دموعه، ويقول:

– عبد الناصر تنحى عن الحكم.

لـم يعـرف ابن عمـي وقتها عمّ نتحـدث، وعمّن نتحـدث، لكنه أدرك مـن نشيج «فكري» أفندي ودموع أبـي، أنهما يبكيان إنسـانًا يحبانه بلا حدود، وأنه ربما مات أو وقع في محنة شديدة.

لـم يبـرح هـذا المشـهد رأسـي أبـدًا. وحيـن رحلـت أنـت إلى «أفغانسـتان» وجئـت أنا إلى قريتنـا لأزور جدتك، كـان هو لا يزال علـى قيد الحياة، وحين حكيت له ما أقدمت عليه، ابتسـم في مرارة وقال:

– «أنور السـادات» يسـلم أولادنا للمخابرات الأمريكية لتستعملهم رصاصًا تطلقه على الروس في الكهوف الباردة، وفوق قمم جبال تكنس الريح كل ما عليها.

ولـم أكـن أعرف دهاليز السياسـة مثله، فتطلعت إليـه وفي عيني عجب، فواصل:

– فتح ذراعيه لهم ليحاصرونا، وغدًا سيندم.

لكـن «السـادات» لـم يعذبـه النـدم طويلا، فقـد نزف نـدمـه بين جنـوده، أمـا أبـوك فهو الـذي تجمد الندم في عروقـه، ولا يريد أن

يسـيل، رغـم جروحي السـاخنة دومًا. وها أنا حتـى الآن أغرف من بئـر أحزاني، شـجنًا ووجعًا، وأسـكبه فـي آذان الذيـن ينصتون إلى شـكواي، ولا يجيبون عن سؤالي: هل ضيعتك من يدي؟ أم ضعت أنا منك؟ أم شيء فوق إرادتنا ضيعنا من بعضنا؟

سـتقابل «فكـري» أفندي بعـد قليل، يـا ولدي، حين نطـرق بابه فيفتح لنا وخلفه رفوف كتب سكنها الغبار، ولا ترى عيناه الكليلتين وجهينا في ظلال التوتة العجوز، ثم ينادي من جوف الزمن البعيد:

– مَن؟

سأقول له على الفور:

– عـدت بمَـن ضـاع منـي، وأتعبتك بشـكواي عنه في السـنين التي خلت.

وسـيأخذك في حضنه، من كثرة ما سمع عنك مني، وأنا أتراقص وجعًـا، لكـن احـرص ألا تضغـط علـى منكبيـه، مثلما اعتـدت أن تفعـل مع إخوانك فـي الكهوف البعيدة، فقد يتسـاقط بين ذراعيك. مـد يدك وصافحه، فهـو ليس كافرًا مثلما تصـف أمثاله دومًا، بل قد يخـرج إليك ويدع مـاء الوضوء يتقاطر على أصابعـك، أو تجد فمه يلهـج بالتسـابيح، أو بجانبـه سـلة التوت تنتظـر أفـواه أولاد الناس مثلنـا، نحن، الذين كانت لنا أفواه تفرح بتلك الفاكهة المجانية، أيام البساطة الآسرة.

أرجوك يا ولدي، انظر في عيني «فكري» أفندي جيدًا، وتخلى عن كل أوهامك حيال أمثاله، ثم مد كفيك لتملأهما بالسماحة والسكينة. تغربت وجبت بلادًا كثيرة ولم أجد في وداعة هذا الرجل أحدًا. وجهه شرب من توت شجرته الماثلة على قلبه، فلا يزال مشتعلًا بالحياة رغم تقدم العمر، وجسده لا يزال لدنا من اهتزازه على إنشاد الشيخ «ياسين التهامي»، وهو يشدو بقصائد «عمر ابن الفارض» الرائعة.

العتبة السادسة عشرة

حين يدخلك العيش تقصد صانعة البهجة محمولًا فوق رغبة جامحة وتلال من الظنون وأنت تمني نفسك كثيرا بأنك ستقضي منها وطرًا. لكن الجذابة الفاتنة تصدك وتردك، وترى منها وجها غير الذي رأيته من قبل أو كنت تنتظره، فتعود كاسف البال، لكنك تربح عصمة من الرذيلة، وتجني حكمة ستعيش معك إلى أن تلقى الله.

لتمشِ، يا ولدي، تحت ظلال شجرة التوت، وقد تتساقط بعض أوراقها وثمارها فوق رأسينا، وحين ينحسر الظل التفت يسارًا، ستصادفك حارة مخنوقة بين البيوت، تحتضن بيتا بسيطا منخفضا قليلا، بابه ملون بالأصفر والأخضر الزاهيين.

يمكننا، يا ولدي، حين نصل إلى هذا الباب الملون أن نطرقه في هدوء، ونرفع رأسينا لنرى السيدة التي ستطل من المساحة الموارية، وخلفها عتمة رائقة، تسبقها ابتسامة عذبة تكاد تضيء، ويغرد فمها بكلمات الترحيب المعهودة لديها:

- يا ألف أهلًا، وألف سهلًا.

اسمها «سنية» ويدللها الناس هنا بـ «سونا». لا شك أنها ستذكرني، وستمد يدها لتصافحني بحرارة، وفي المسافة المتراوحة بين يدي وأطراف أصابعها، سأستعيد زمنا جميلا، راح بلا رجعة.

ستقف أنت مندهشًا أمامها، وقد تزاور عينيك بعيدًا عن وجهها، متدثرًا بلحيتك، وخجلك الذي لا يزال قائمًا رغم أنك قتلت كثيرين بلا تردد، هناك بين أسنة الصخر، التي تخز الفضاء، وتجرحه، فيسيل دمه على رؤوس العابرين، والهائمين، والباحثين عن الفراش.

هذه المرأة كانت راقصة كل القرى التي حولنا، يسمونها في بلدنا «الغازية» وتسمي هي نفسها «الفنانة الاستعراضية»، بعد أن التقطت هذا المسمى من التلفزيون ذات ليلة، أما أنا فأسميها بكل امتنان: «صانعة البهجة».

أرى ملامحك قد انقبضت، وربما تلعنني في سرك، لكن ما لا تدريه أنت ومَن على شاكلتك أن هذه السيدة التي اهتز جسدها أمام مئات الآلاف من العيون على مدار سنين، لم ترتعش تحت أي أحد سوى زوجها، ولمَّا فارق الحياة، أغلقت باب الزواج، رغم كثرة خطابها، ولم يمسسها بعده بشر.

تعالَ هنا، لماذا تبتعد عني خطوات؟ أتريد أن تهرب؟ هل مجرد سماعك كلمة «راقصة» يجعلك تنفر، ويخف جسدك فوق ساقيك، وتسعى إلى أن تطير من هذا المكان؟ ما يدريك أنها قد تكون عند الله أعلى منك وأقرب؟ وربما أعلى من شيخك الذي تكاد تعبده؟ لا ترفع عينيك في عيني بغضب، فأنا أبوك، اعتبرني أهذي، أو أجهل ما لك به علم، واعذرني. لكنك لو كنت على علم حقًّا،

عرفت ما أقول، بل وفهمته. يمكن أن تكون أنت تعمل عمل أهل الجنة، أو هكذا تتصور، وقبل موتك بقليل تعمل عمل أهل النار، فتقلب فيها. وقد تكون هي، في نظرك، تعمل عمل أهل النار، وقبل موتها بقليل تعمل عمل أهل الجنة، فترفل في النعيم. ألا تؤمن أنت بهذا، وتردده ليل نهار؟ لماذا تتنكر إذن لإيمانك؟ ألم أسمعك كثيرًا تقول: الله تواب رحيم؟ ألم تقرأ في كتاب الله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

ومع هذا أنا أقول لك بكل ثقة إنني أرى هذه «الغازية» أبعد عن الذنوب من بعض شيوخك؟ لا تشوِّح لي بيدك هكذا، ولا تقل «أف»، ولا تنهرني، وانتظر حتى أوضح لك قصدي، ولك حرية أن تفهم ما ستسمعه، تقبله أو ترفضه، لكنني أشعر الآن بضرورة أن أنبئك بكثير مما كتمته عنك، وأن ترحل في صمت بعيدًا عني، وعن أمك المسكينة.

أجبني عن سؤالي: ما هو الأشد حرمة: القتل أم الزنى؟ لماذا لا تجيب مع أن الأمر واضح لك أكثر من وضوح بوابة بيت الغازية أمام عينيك؟ لا بأس، سأجيبك أنا: القتل طبعًا. وهنا أقول لك: كم مرة تسبب بعض شيوخك بتخريصاتهم وتحريضهم في إزهاق أنفس الكثيرين والكثيرين. أما الغازية فلم ترتكب حتى الزنى،

ولا يشغل بالها إغراء أحد، كما كانت تخبرني دومًا أيام شبابي، بل إسعاد الجميع. وكما قلت لك: لم يلمس أحد أي بقعة من جسدها سوى زوجها.

إياك أن تعتقد أنني أكذب عليك من أجل تجميل القبيح، لأنتصر لما أذهب إليه من رأي، فأنت تعرف أن أباك طالما راجع نفسه حين اكتشف خطأه أو خطيئته، وما أنا هنا في قريتنا، أمر بك على البيوت التي تحتضن كل هذه السنين، إلا لأكفر عن ذنبي حيالك، وأحاول أن أصحح خطئي. ومع هذا سأمد لساني قليلا ليسرد عليك ما يرفع أي غشاوة عن بصرك، ويغسل آثار الشكوك التي تحيك في صدرك.

في صدر شبابي كنت مولعًا بهذه المرأة، بل لا أبالغ حين أقول لك إن رجولتي تفتحت على شرودي في مفاتنها، حين رأيتها ترقص ذات ليلة في فرح ابن شيخ البلد. كانت تتلوى فتتماوج حولها الريح، وكانت ترفع قدميها عن الأرض حتى ظننت أنها ستطير. أرسلت عيني إلى جسدها الممشوق، وولعت بها، رغم أنني أصغر منها بخمس سنوات، ورغم أنني أسمع الناس تقول: إن أمها كانت «غازية» أيضًا، وجاءت إلى القرية ذات يوم من مكان لا يعرفه أحد.

كنت مشبعًا بحكاية جدي مع «روزالين»، وربما وجدت في «سنية» مغامرة محرمة أيضًا، وربما كانت هي لي مثلما تكون الفنانات والمطربات لأقراني، يولعون بهن عن بعد، ويعلقون

صورهن في غرفهن، ويطيلون النظر إليهن في هيام وافتتان، ويبحثون عن شبيهاتهن ليكن فتيات أحلامهم. لم أكن مثلهم، فجدي كان عاشقًا مختلفًا وأورثني بعض جنونه، فعلقت صورة سنية على جدران قلبي.

لم أفكر بالطبع في الزواج منها، لكنني استحضرتها فاكهة حرامًا تقطعها أسناني، فتملأ فمي، وأهضمها في تلذذ، وقلت لنفسي: لا يحتاج الأمر سوى مبلغ معقول من المال. وتذكرت وقتها قول جدتك: «اللي تشتريه الفلوس، لا تشتهيه النفوس». قدمت عللًا لا حصر لها لجدك حتى استدفأ جيبي بما أريد، وسعيت بعدها فورًا لأستدفئ بجسد سنية الذي يكاد يتطاير منه شرر.

في ليلة راقبت أمها حتى خرجت، وطرقت الباب، الذي لم يكن ملونا، فجاء صوت «سنية» الرخيم، ليهز خلاياي، ويطلق الدم الساخن في عروقي، فقلت لها إنني أنا، وجئت في أمر مهم. واربت الباب قليلا، وقالت:

- لا يوجد أحد غيري في الدار.

ثم مدت ذراعها لتسد المسافة الضيقة التي كانت بين جسدها والحائط، لكنني تجاسرت ومرقت من تحت إبطها حتى وصلت إلى منتصف الصالة، وقلت لها:

- زيارة كلها فوائد.

لم تنطق، فاقتربت منها، ومددت يدي في جيبي فأخرجت رزمة من النقود، وقلت لها:

- هي لكِ.

فامتلأ وجهها عجبًا، اتسعت له حدقتاها، وبصوت تخامره الظنون:

- مقابل ماذا؟

- بوسة واحدة.

كان رهاني أنها لو تركتني أقبلها مرة واحدة، فأرسل رحيقي ينبعث في عروقها ويستقر في قلب قلبها فتسقط في الهوى، وبعدها يمكن أن ينفتح الطريق إلى كل ما أريد، بلا أي مقابل جديد. وقبلها كنت قد ظللت أسأل بعض الشباب المتزوجين، من أهل قريتنا، عن القبلة التي تسكر ويولد بها المحو والغياب، ورحت كثيرًا أراقب كل مشاهد الحب في الأفلام القديمة، وأغرس عيني بين ضفاف الشفاه المتلاقية في صمت مجنون، ثم أقف أمام مرآة قديمة في بيتنا، أغمض عيني وأستحضر شفتي «سنية»، وأمد إليها فمي، بينما أمد ذراعي لتطوق خصرها، وأغيب معها في قبلة طويلة، تنقطع لها أنفاسنا، ويرتعش قلبانا فتهتز الأرض من تحتنا، حتى تسقط المرآة، ولا يكون أمامي سوى وجه واحد لـ «سنية» الحلوة.

لكنني أفقت من شرودي على صفعة قوية على وجهي، وصوت يصرخ:

- اخرج برة.

رفعت عيني لأستوعب ما يجري، فوجدت ذراع «سنية» ممدودة من آخرها نحو الباب، بينما وجهها يلتهب، فيحمر ضوء اللمبة الواهن عليه. دسست النقود في جيبي، ثم غلا الدم في عروقي، فطأطأت رأسي كأني قد صدعت بالأمر، ثم فاجأتها بصفعة قوية، كادت تطرحها أرضًا، وتأتي بالجمرات المختبئة تحت جلد بشرتها لتسقط تحت أقدامنا. وظننت أنها ستصرخ، وتمسك بتلابيبي، وتصنع لي فضيحة مدوية، لكنها فاجأتني بقولها:

- لست رخيصة يا أستاذ.

فما كان مني إلا أن واجهت حكمتها بتنهيدة طويلة، ثم قلت لها:

- آسف على ما فعلت، وأرجوكِ أن يظل هذا سرًّا بيننا.

هزَّت رأسها، ولم أصدق يومها أن واحدة مثلها يمكن أن تصون السر، وظللت في اليوم التالي أنظر في وجوه الناس لعلي أجد عليها آثار ما جرى في الليلة الفائتة، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، ومرت الأيام، ولم يتغير الحال. وها هي السنون قد مرقت، ولم يعرف أحد

أبدًا بما جرى. ولما أفقت من نزوتي راحت «سنية» تكبر في نظري، لم أعشقها، لكنني صادقتها بيني وبين نفسي، وكنت كلما جئت في إجازة أيام الجامعة أو بعد أن تغربت تمامًا في زحام القاهرة، أحرص على أن أسلم عليها في امتنان، حين ألتقيها في الشارع ذاهبة أو آيبة.

لم تمر «سنية» في حياتي بلا أثر، فقد تركت في نفسي علامة، إذ تعلمت منها ألا أحكم على أحد من ظاهره، ولا أبني عنه رأيًا من النميمة التي ينهش الناس بها عرضه. فمع الأيام سقطت بنات عائلات في الخطيئة، وخانت زوجات أزواجهن، ممن يتوهم كثيرون أنهن شريفات عفيفات، بينما بقيت «سنية» على عهدها.

وكبرنا، تزوجت هي وأنجبت بنتًا جميلة اسمها «رضوى»، أرسلتها إلى المدارس، وتزوجت أنا وأنجبتك وأرسلت إلى مدارس أفضل بكثير. بنت «سنية» تعمل مدرسة لغة عربية في مدرسة القرية، وسمعت أنها تحفظ ثلثي القرآن، وكثيرًا من الشعر، وأنها علمت أمها كل شيء عن الصلاة والذكر، وتتصدى كل يوم لمدرس من بلدتنا ذي لحية يطلق الكآبة والكراهية حوله ويزعم أنه يصدع بأمر الله. أما أنت فلم تعمل شيئًا إلا أن تصير قاتلًا، هناك في الجبال البعيدة.

العتبة السابعة عشرة

الرجل الذي يتصرف بلا حياء فيتساقط لحم وجهه بلا انقطاع يقف أمام بيوت الله مادًا يده ولسانه، ليهمس في آذان كثيرين فيسوقهم إلى المحرقة. تقصده أنت ذات ليلة تحت جنح الظلام، وفي رأسك اختلاط بين سؤال عن الغائب الحبيب وآخر، يشغل الناس ولا يعنيك، عن الكنز المخبوء، لكن أسئلتك لا تذهب، بل يولد غيرها، وتنتهي الطرق من تحت قدميك في فراغ.

في ظهر بيت «سنية» هناك شيء من الطوف، مكوم في فوهة الشارع الخلفي، كأنه زائدة جلدية سوداء تقطع انسياب جسد الشارع. هناك ستجد، يا ولدي، رجلًا اسمه «ذكري»، قد يثير عاطفك، بل أنا متيقن من أنك ستمد إليه يديك، وتأخذه في حضنك، وتدوس شديدًا على منكبيه، وستبتسم في وجهه وتناديه بامتنان: «يا أخي».

هكذا لا يشغلك، يا ولدي، سوى ظاهر الأشياء والبشر، تقف دومًا على الشاطئ وقدماك مغروستان في الرمل تضربهما الحصوات والأحجار الصغيرة والنفايات التي جرفتها المياه. سترى في هذا الرجل الذي يخرج لك، وهو يهز شفتيه بالتسابيح.

إنه بيت رجل فقير غني، وغني فقير. غناه في جيبه، وفقره بين عينيه. إن وجدت شفتيه تتمتمان فلا تحسبن أنه يسبح ربه، بل يعد الجنيهات التي دسها العابرون في يده، وهو يقف على يمين مسجد «الفولي» عند الظهر، وعلى يسار مسجد «الحبشي» عند العصر،

وأمام مسجد «الرحمن» عند المغرب. وقبل العشاء يستعيد العافية التي ركنها مؤقتًا إلى جانب الحائط، واستدعى الضعف والمسكنة، ويفرد ساقيه عدوًا حتى يصل إلى موقف العربات، فيؤوب إلى بيته هذا.

لا تعلم، يا ولدي، أبدًا أن خيطًا رفيعًا يصل هذا الرجل بك أنت. تخيل أنت الذي لم تره أبدًا، ولم تحط عنه بأي خبر، ولم يدر ببالك أن تقابله، وأن يصافح وجهك وجهه، قد جمعكما طريق واحد من دون أن تدري. ستسألني مندهشًا عما أقوله لك، وكعادتي معك لن أجعل حيرتك تطول.

هناك على بعد سبعة كيلو مترات من قريتنا تلك يوجد حي «أبو هلال» في مدينة «المنيا» الوديعة التي أجهدها الفقر والتطرف والتعصب، لكنه لم يأكل بعد كل روحها الطيبة. في هذا الحي البسيط المتهالك يوجد مسجد الرحمن، وما أدراك ما هو؟ إنه البقعة التي انطلقت منها كتائب الغضب إلى جبال «أفغانستان» التي ملأت أنت منها عينيك، ثم تساقطت، فانزاح من مقلتيك الحجر المبتل الملفوف بالحشائش والأزهار ولم يبقَ سوى الأحمر القاني، نار ودم.

أمام مسجد الرحمن راقبه أصحاب اللحى طويلًا. ملأوا عيونهم من وجهه الضامر، ثم همهموا، وسألوا مَن لهم في مباحث أمن الدولة فقالوا لهم: «اطمئنوا، إنه مجرد شحاذ».

كان هذا أيام شهر العسل بين الملتحين ودولة «السادات» قبل أن يغدروا به ويخطفوا روحه من دنياهم القاتمة ويلقوها هناك في برازخ النور والدهشة والفرح. لكن لأنهم كانوا ينوون أن ينهشوا بأسنانهم الأيدي التي امتدت إليهم، فقد أخذوا حذرهم، حتى لا يكشفوا أوراقهم حين تأتي لحظة المواجهة.

وهنا وجدوا لـ«ذكري» فائدة، أرسلوه بين المساجد ليلتقط شبابًا بعد أن يضعهم تحت عينيه أيامًا، ويسوقهم إلى مسجد الرحمن، ليتولى الشيوخ بقية المهمة.

كثير من هؤلاء كانوا معك يا ولدي في رحلتك التي طالت، وحملوا البنادق إلى جانبك. ربما ربط أحدهم ساقك ليمنع دمك من أن يسقي الرمل. ربما حملك أحدهم فوق ظهره وعبر بك من فوهة الخطر، من النار إلى الشجيرات النابتة في قلب الصخر، وألقاك على البساط الأخضر. أنت قلت لي في الخطاب الوحيد الذي أرسلته لي إن شابا من «المنيا» يقاتل إلى جانبك، وتقتسمان كسرة الخبز وجرعات الماء، والوحشة والأمل.

أعتقد أن هذا الشاب هو واحد ممن اصطادهم «ذكري» أمام مسجد الفولي ومسجد الحبشي أو غيرهما، وأرسلهم إلى مسجد الرحمن ليغرفوا من الوعظ الراكد تحت المنبر ويملأوا رؤوسهم، ثم تنفرج أساريرهم حين يعرفون أن جهادهم ليس من أجل الآخرة

فقط، إنما فيه نصيبهم من الدنيا، دولارات من بلاد النفط وبنات روسيات جميلات، إن أسروهن، يكُنَّ ملك أيمانهم.

كان الشيخ يبتسم في خبث وهو يقول لهم، ورأسه مسند إلى المنبر:

- هل سمعتم عن حور العين؟

فيجيبون جميعًا في امتنان:

- نعم.

فيهز رأسه ويقول:

- هؤلاء في جنة الخلد، أما على الأرض فإن حورها هن بنات الروس.

ورغم أن «ذكري» لا يعرفك ولا تعرفه، إلا أن ما بينكما قد يجعلك تترك كل بيوت القرية، وتلازم أمام داره، تنتظره حين يعود بعد أن يترك الليل وراءه ساعات قليلة، يجر قدميه، قابضًا على جبيه. إنها طريقته في المشي التي لازمته منذ أن تلوَّن المشهد العريض بدم «السادات» ودم جنود الأمن الذين قتلهم أصحاب اللحى الكثة عند مديرية أمن «أسيوط».

جاء ليلتها والإعياء باديًا على وجهه، ومكث في بيته أسابيع، ثم خرج قاصدًا مساجد جديدة لا يعرفه فيها أحد. هذه المرة اتجه

شمالًا إلى مدينة «سمالوط»، وعرفت قدماه طريق المقهى. ربما لأنه أراد أن يمحو أي علاقة له بالمشهد السابق، من خلال الاختباء في «دوائر الدخان المتصاعد من الأفواه، وربما وجد في هذا سلوى.

كان يجلس في نهاية يوم طويل على كرسي تآكلت أطرافه، يحتسي الشاي، ويسحب دخان الشيشة في تلذذ عجيب. يدفع الحساب مرة، ومرات يقول لصاحب المقهى:

- احسبني على فلوس الزكاة.

راق له المعسل فكان يقضي بعض الليالي ساهرًا مع «غندور»، ولما توثقت العلاقة بينهما، طلب «ذكري» منه أن يحفظه دعاءً مأثورًا، فأهداه إليه عن طيب خاطر، وهو يضحك ويقول:

- كُل عيش.

راح «ذكري» يردد كلامًا مسجوعًا في آذان العابرين، فزادت أعطياتهم. وأتى الناس على ذكره فوق مصاطب السمر، فراحوا يقدرون المال الذي ينام فوقه. وقال أحدهم:

- يضع ماله في بلاص كبير، حفر له في غرفة صغيرة مظلمة لا نوافذ لها.

وقال ثانٍ:

- صنع سردابًا في أحد حوائط بيته، وكدسه برزم من ورق البنكنوت.

وقال ثالث:

– فتح حسابًا في البنك، ورأيت معه دفتر توفير ذات صباح.

لكن أحدًا، يا ولدي، لم يعرف على وجه اليقين أين يخبئ «ذكري» ما جمعه؟ سأله الناس فأنكر أن يكون معه شيء. رفع أصابعه العشر في وجوههم، وقال:

– ما يجود به أهل الخير على قدر اللقمة، وكوب الشاي، وباكو الدخان.

وبلغ الفضول بالناس مبلغًا كادوا معه يسألون الحمار، بوصفه الكائن الحي الوحيد الذي يشاطر «ذكري» داره، حيث أعطاه حجرة بكاملها من حجرتي بيته. وكان قد اشتراه من «عطا الله» قبل سنين، وركبه في مواسم الحصاد، يجول فوقه على أجران القمح والفول، وخطوط البطاطس المتلاحقة فوق الطمي الجاف، وراء أقدام فلاحين منهكين، ينبشون عن هذه الثمرة اللذيذة بلا كلل. في آخر النهار يعود بالكثير، الذي يحمله إلى المدينة، فيبيعه لتجار الغلال والخضراوات.

بعض الناس كانوا يهشونه بعيدًا، لكن نفسه لم تنكسر أبدًا لنوبات الذل. وكان يصف ما هو عليه أحيانًا:

– حالي أحسن من غيري.

وحين سألته ذات مرة عما يقصده، ابتسم عن أسنان مثرمة، وقال:

– كثير ممن عرفتهم، ذات يوم، ينامون الآن في عتمة السجن، وبعضهم مات أو ضاع في الجبال البعيدة.

أنت، يا ولدي، واحد ممن كان يقصدهم «ذكري». لم تكن من بين أولئك الذين اصطادهم من أمام المساجد، فأنت ذهبت طواعية، لم يأخذك أحد من يدك إلى هناك، وإن كانت الهمسات الخفية التي تنطوي عليها كتب وكتابات أغرقوا بها السوق، وكلام ردموا به المساجد التي كنت تتردد عليها، كانت أقوى عليك من كل الأيادي التي يمكن أن تدفعك بقوة إلى حيث أرادوا.

لم يوح لك «ذكري» بشيء، ومع هذا قصدته ذات ليلة لأسأله عنك، بعد أن أوصدت الأيام أمامي كل النوافذ التي يمكن أن تؤدي إليك. وخطابك الوحيد، الذي قرأته مئات المرات، ورأيت حروفك وهي تكفرني مئات المرات لأنني أترافع عمن تراهم ملحدين وفسقة، لم يعد يجيب عن الأسئلة التي تشتعل في نفسي. قلت ربما يكون «ذكري» على اتصال بخبر أيٍّ من أولئك الذين أرسلهم إلى مسجد الرحمن قبل سنين طويلة.

لا أزال أتذكر كل شيء عن هذه الليلة، يا ولدي. وقفت إلى جانب الحائط في الظلام الرائق، بين بيت «ذكري» وبيت «سنية»،

وكانت تأتيني أصوات الطيور التي تزقزق عند أعشاش بنتها فوق شجرة التوت أمام بيت «فكري» أفندي، ويغطي عليها نباح الكلاب التي تعبر بجواري، وبعضها يقف قليلا يشمشم في طرف بنطالي ثم يمضي وهو يهز ذيله، غير عابئ بشيء.

كنت أُنقِّل قدميَّ في متر مربع، حتى لا تجمدان من البرد القارس، وكنت كلما أشعر بقدوم أحد، منبعثا في قلب الظلام، أتحرك قليلا، والخجل يقطر مني. كان من الممكن أن أعود إلى بيت جدتك، وأرسل في استدعاء «ذكري» لكني لم أشأ أن أسأله عنك أمام عجوز مكلومة على حفيدها فأجدد مواجعها. ذهبت في اللحظة التي قيل لي إنه يأتي فيها بالضبط، لكنه تأخر على غير العادة، ووجدت نفسي واقفًا في مكاني، قابضًا على أمل يتضاءل ليصير سرابًا، لكن ربما أردت فقط أن أثرثر معه حول تجربته القديمة في إرسال المجاهدين إلى مَن يقتنصونهم، ويرسمون أمامهم دروب السفر. أي شيء منه حول عالمك الذي كان مجهولًا لي، حتى تلقيت رسالتك، التي لم تشفِ الغليل.

حين جاء يجر قدميه، وضع يده على كتفي، واصطحبني حتى عتبة بيته، ولم يفتح الباب. كان حريصًا على ألا تقع عيني أي أحد على صحن داره، فربما تذهب باحثة عن كنزه المطمور تحت ركام السنين واللوعة. وكنت أعرف ما يدور برأسه، لكنه لم يكن يعنيني. ولما سألته، ابتسم قليلا، ثم شرد طويلا، وقال:

- قابلت أحد العائدين من «أفغانستان» صدفة في «سمالوط»، لم أعرفه، لكنه عرفني.

تهللت أساريري وأطلقت الفرحة صوتي:

- عرفك؟

- لم ينسَ الرجل الذي اصطاده قبل سنين. نظر إلى وجهي طويلا، ورماني بنظرة قاسية، ثم انصرف.

- ألم تسأله عن اسمه أو عنوانه؟

- قفزت من أمامه، وكدت أدخل في الحائط.

- وغيره؟

- لم أقابل سواه.

ثم فتح الباب، وسحب قدميه من أمامي، ودخل، وتركني واقفًا تحت الصقيع ورذاذ المطر، تغطيني عتمة الجدران واليأس.

العتبة الثامنة عشرة

الحارس الصلد يخور ذات ليلة؛ لأن أصحاب اللحى خرجوا عليه في الليل البهيم، ليقولوا لمن يطاردونهم بلا هوادة: نحن هنا، وخبروه دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة بين أن يموت أو أن يموت، فاختار إحدى الميتتين، وعاش بقية حياته كسيرًا، لا صناعة له إلا اجترار هذه اللحظة القاسية.

بعد بيت «ذكري» بيوت لا تهمك، يا ولدي، فاعبرها صامتًا، وإن وجدت بابًا مواربًا يطل منه أي وجه، رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا، فألقِ السلام. ستجد مَن يسمعك، يرد التحية بأحسن منها، ثم يعقبها ببعض كرمه الشفوي: «تفضل»، لكن إن لبيت دعوته وتفضلت، فتيقن أنه سيجود عليك بأفضل ما عنده، وقد لا يسألك: «من أنت؟ ومن أين جئت؟»، وسيناديك طوال الوقت: «يا شيخ». فأمثالك من أصحاب اللحى لا يزال الناس يصدقونهم، ويتغافلون عن عيوبهم، لكن يا ويلكم لو اكتشفوا كذبتكم الكبرى.

حين تنتهي من كل هذه البيوت التي لا تعنيك، ستجد بيت «متولي» شيخ الخفر، الذي سرق رفاقك بندقيته ذات ليلة، وتركوه يتخبط في جانبي الجسر، وصراخه يهز شواشي النخل، ويهزم أجراس الضفادع، التي ترن في الخلاء.

كان عائدًا من نقطة شرطة «زهرة» بعد أن استلم بندقيته ليحرس فقراء بلدنا، كعادته كل ليلة، وخرج عليه أغراب من زراعات القصب. اقتربوا منه، وسلموا عليه، فأعطوه الأمان، لكنهم غدروا خانوه، وغدروا به. لم يفعلوا سوى ما يعرفونه، الخيانة والغدر وكل شيء مبرر لديهم، فالكتب الصفراء مملوءة بكلام يرطب نفوسهم، ويوهمهم بأن ما فعلوه حقًّا، وثوابه الجنة. كانوا يعرفون أنه مجرد خفير، لم يؤذِ أحدًا في حياته، يحرس ويلملم الجنيهات التي تعطيها له الحكومة في آخر الشهر ليطعم أولاده، وبنتين تركهما له أخوه ورحل عن دنيانا إلى مكان يظن أصحابك، يا ولدي، أن الله قد تعاقد معهم على ملكيته.

أيامها كانت هزائمهم تتوالى أمام رجال الشرطة، فكانوا يريدون أن يسجلوا أي نصر، حتى لو كان «متولي» المسكين هو الضحية، وحتى لو كان سيولول كالنساء وتنزل دموعه للمرة الأولى في حياته، أو هكذا يراها الناس.

كل ما شغلهم وقتها أن تقول الصحف في اليوم التالي: «إرهابيون يستولون على بندقية شرطي». لم تكن كلمة «إرهابي» تضنيهم، بل كانوا يفتخرون بها ويقولون في وجه الجميع: «نحن نرهب أعداء الله».

لا يهم أن يكون الضحية «متولي» أو غيره، المهم هو أن الصحافة ستصفه بالشرطي، وأن بندقيته ستكون هي رمز سلطة يصارعون من أجل إزعاجها بعد أن أدركوا أن الدم لن يُسقطها، بل يزيدها قوة، فعصر بين أصابعها الخشنة التي ينبت الشوك على جوانبها أجسادنا جميعًا، وهي تصرخ في وجوهنا: «لا صوت يعلو فوق صوت محاربة الإرهاب».

لم تنشر الصحف شيئًا، لكن عرفت كل القرى حولنا مأساة «متولي». واجه تحقيقا تلو آخر، وهو يقتل الدموع في محجريه، بعد أن لام نفسه على الولولة الأولى والأخيرة في حياته. وبات على شفا الرفت، ورفع كل أهالي قريتنا الطيبين أكفهم إلى السماء داعين له بالنجاة، واستجاب الله لهم، فهو يسمع صوت المستضعفين. في اللحظات الأخيرة وقع أحد المعتدين في يد رجال الأمن، واعترف لهم بكل شيء، ودلهم على مكان البندقية فأحضروها.

مرت سنوات على هذه الواقعة، لكن الرجل يحكيها بلا توقف. نسي كل شيء آخر في حياته، ولم يبقَ له سوى هذه اللحظة، التي مات فيها وعاد إلى الحياة. ويواسيه الناس مذكرينه بأولئك الذين لم يكتفِ الإرهابيون بخطف أسلحتهم بل ذبحوهم وتركوا التراب يشرب دماءهم على مهل، لكن هذا الكلام يدخل من أذنه اليمنى ويخرج من اليسرى، أثيرًا أو صفيرًا، ولا يترك وراءه أي معنى.

فالحياة عند «متولي» لا معنى لها وكرامته قد انفرطت على الأرض ولصقت بنعال الذين خطفوا بندقيته وهربوا. وكان يقول لزوجته، وهي تحكي للناس:

- أنا مت ليلتها، والموجود معكم الآن مجرد مسخ.

ثم يتوه قليلا ويواصل:

- كان الأفضل أن يقتلوني وأنا ماسك سلاحي.

أهل القرية نسوا هذه الحكاية مع الأيام، ولم يعد لها صاحب إلا صاحبها. يعيش فيها، ويغرق في تفاصيلها، التي لا تفارق مخيلته، يستدعيها ويضيف إليها، ويغير في كل ما جرى، ليجعل من نفسه أسدًا واقفًا على أطراف أصابع قدميه، يزأر ويطلق الرصاص، ومَن هاجموه يلقون أجسادهم في زراعات القصب، وكروشهم تطيح بالأعواد، فتفرقع وتذوب في الفرقعات الخارجة من فوهة البندقية الميري العتيدة، ومن فرائصهم التي ترتعد.

يعود من شروده، وينظر في وجوه كل مَن يقابلهم ليفتش عن حكايته القديمة. كل ما يقوله الناس أمامه من كلمات يأخذه إلى هذه الحادثة، يستدعي تفاصيلها ويفرش الكلام فوقها ليقيس ما إذا كان مدحًا أو قدحًا. وفهم كل أهل البلد مفتاح مواجعه، فأغلقوا بابها. وبعد شهور من الصمت، عاد هو إلى ترديد الحكاية مرات ومرات.

كان يحكي ويطوح رأسه، منقلًا عينيه بين وجوه السامعين، وفي كل مرة يضيف شيئًا جديدًا، يسحبه ليغطي به ما تعرّى من كرامته.

وضجر الناس من تكرار حكايته، فكانوا أحيانًا يكملون له ما يريد أن يقول في سرعة، فيصرخ في وجوههم: «غلط». ثم يعدل الحكاية. وكانت زوجته تعتذر للناس، وتقول بصوت يقترب من الهمس إن عقله قد خف منذ يوم الحادثة.

أمثال «متولي»، يا ولدي، كثيرون في بلادنا، لكننا لا نعرف ما إذا كانوا يهذون أم تماسكوا وعبروا فوق الصعب؟ هل يثرثرون أم لاذوا بالصمت، وكمنوا في أنفسهم، يروضون الأسى؟ ففي الوقت الذي كنت أنت تاثها في بلاد لا تعرفها، كانت أيامنا هنا ملونة بالأحمر. دم في كل مكان، وبنادق تسرق، ونساء تولول، وصغار يطولهم اليتم، ورجال يهذون، ويلقون أحشاءهم على قارعة الطريق، وحكايات كثيرة تفرش سوادها على كل المساحات الفاصلة بين شفاه تنطق، وآذان تسمع.

لم يكن «إخوانك» يا ولدي يعنيهم كل هذا، ولم ينشغلوا سوى بتربية أوهامهم التي تناسلت في كل مكان، وتعميق الكراهية التي سرت في نفوسهم لكل الذين لا يقفون معهم، أو يجفلون منهم، أو أولئك الذين يتصدون لهم ببسالة.

لم يكن «متولي» من هذه الفئة الأخيرة، بل كان يقبل على الشيخ «حسن» وينصت إليه. ورغم معرفته بماضيه السيئ إلا أنه غفر له، أو تناسى كل شيء ممقوت عنه، وجلس يسامره ليالي طويلة. وحتى رجال «جماعة التبليغ والدعوة» الذين هرب منهم سليم السويركي، صاحبهم «متولي» وهم يطرقون أبواب الناس، ليأخذوهم من أيديهم إلى المسجد. كان يمشي خلفهم في امتنان، وكأنه في حراسة خاصة لهم، وحين غادروا قريتنا استوحشهم وقال للناس: «لو بيدي لتركت البندقية وذهبت معهم في سبيل الله».

حين عادوا بعد واقعة السرقة، ذهبوا إليه، طرقوا بابه ففتح لهم بعيون باردة، ولصق يديه بجانبي فخذيه، فعادت أياديهم الممدودة إليهم حسيرة. أعطوه ظهورهم، وسألوا الناس في المسجد عنه، فقيل لهم ما جرى له. عذروه، وطرقوا بابه مرة أخرى كي يفهموه أنهم مختلفون مع مَن يرفعون السلاح، وأنهم لا يفعلون شيئًا سوى سكب الكلام في آذان الناس لعلهم يهتدون. لكن «متولي» لم يسمح لكلامهم أن يعبر أذنيه إلى عقله أو قلبه، كان قد أغلق بينه وبين كل صاحب لحية بابًا سميكًا، وكان يقول للناس:

- أبوابهم مفتوحة على بعضها.

ويعود إلى حكاية «حسن» ليتخذ منها دليلًا على ما يقول:

- ألم يبدأ بـ «قال الله وقال الرسول» تصاحبهما ابتسامة رائقة، ثم تجهم وكشف عن وجه آخر قبل أن يأخذوه ليطلق حمم النار في الجبال البعيدة؟

هل بوسعك، يا ولدي، أن تدرك أن «متولي» لم يفكر أبدًا في الثأر؟ ادخر همومه داخله، ولم يجعل الكراهية تفتح أمامه أي مسرب نحو الدم. كان يقول إنه مات ليلتها، وإن مَن سرقوه اغتالوه، لكنه كان يُتبع هذا برفع يديه إلى السماء، ويعلو صوته:

- شكوتهم إلى من لا يغفل ولا ينام.

كنت أسمع كلامه فأخبئ عنه حكايتك، لكنه عرفها، فلا شيء يبقى سرًا في قريتنا الصغيرة، حتى لو دسسته في جوف نفسك العميق. ولما حكيت له دلني على «ذكري» الذي كان ينعته دومًا بـ «الملعون»، وقال إنه يمكن أن يكون على صلة بأحد الذين رافقوك هناك فوق الصخر وتحت سماء تمطر دمًا.

الغريب أنني وجدته يتذكر ما قالته الشيخة «زينب» في الزمن القديم، يستعيده ويخبرني أنه كان يسمع بعض كلامها لجدتي وهو قادم يناديني لنضفر سويًا حبالًا من ضوء القمر في ليالي الصيف

البعيدة. فـ «متولي» كان رفيق الطفولة، أنا أخذتني همتي إلى الجامعة، وهو أخذه الكسل إلى أن يصير خفيرًا نظاميًّا، يفك الخط، ويوقع اسمه في دفتر السلاح، أمام بندقية يتسلمها عهدة مسافة سواد الليل.

معي فقط، يا ولدي، كان يبوح بكل شيء، وكنت أحكي له عنك وكلامي يذوب في دموعي، فيمد طرف كم جلبابه الواسع ويمسحها.

العتبة التاسعة عشرة

رفيق الطفولة الكذوب، الذي يفارقك في الصبا بعد أن يبتلعه أصحاب اللحى الخفيفة، يروغ منك حين تلجأ إليه ملهوفًا لتبل ريقك بأي خبر عن الحبيب الغائب، تقف أمام بابه، بينما يتطاير حولك غبار السنين وأزهار كالقطن ترقص في شبه الدائرة المألوفة لديك، فتملأ عينيك حكايات مفرحة من أيامك الغضة، فلا تلبث أن تهشمها، وتعود لتسقط في بئر أحزانك.

في ظهر بيت «متولي» قطعة أرض فارغة، شبه مستديرة، تبدو كميدان عميق، تكنس له الريح أوراق الشجر، وسعف النخيل، وريش الطيور، ونتف القطن التي تتسرب من ثقوب صغيرة في الأجولة الضخمة، حين تتراص هنا في مواسم الجني.

في منتصف هذه «الفَسحَة»، يا ولدي، يوجد بيت «مطيع عبد السميع»، الذي هُدم وبُني ثلاث مرات في حياة أبيك. كان في البداية من الطوف المتراكم بعضه فوق بعض، ثم هدمه صاحبه حتى سوَّاه بالأرض، وأقام مكانه بيتًا من الطوب اللبن، الذي استقرت فوقه قشرة من الطين الأملس، يعلوها طلاء أزرق كالبحر والسماء، راح يتقشر بمرور الأيام، فيظهر تحته الطين الرمادي الغامق، ويصنع لوحة مزركشة، لا تزال محفورة في رأسي، منذ أن كنت أجيء لألعب هنا، مع «أسعد» و«صفوان» و«عطا الله» و«ذكري» الذي كان يسبقنا جميعًا ببضع سنوات.

وكنا أحيانًا، أنا وأقراني، نمد أيدينا لنقشر الحائط، أو نحفر عليه كلمات بالحطب المسنون، منها عبارة كتبها «صفوان» ذات يوم وكانت تقول: «مطيع أبو لمعة السريع»، إذ كنا جميعًا مغتاظين من قدرة «مطيع» على الكذب والمراوغة، ومع هذا كانت تجذبنا وتسلينا حكاياته، وتبهرنا ألاعيبه، وكان أحيانًا يقود العيال في هجمات خاطفة على حدائق البرتقال، ويعودون وحجورهم مملوءة، ولم يكن ينافسه في السرعة سوى «عاطف الزنط».

وكان لعبنا ينقطع هلعًا حين نسمع نقرات بغل العمدة «حيدر» قادمًا يهز الأرض، ويثير عجيجًا، وتتطاير لخطواته أزهار «دقن الباشا»، وبقايا ريش الطيور، ونتف القطن الملتصقة بالجدران، أو التي تعوم في أرجل الإوز والبط والديوك الرومي.

وفي يوم هدم «عبد السميع» البيت، وضاعت العبارة التي لم يمحها «مطيع»، وتركها، ربما حبًا في شخصية «أبو لمعة» الشهيرة، ورأينا عربات النقل قادمة مملوءة بالطوب الأحمر والأسمنت، وراحت الحوائط الصلبة تعلو في وجوهنا، وبعد اكتمال البناء والطلاء، أعاد «صفوان» كتابة عبارته بالطباشير الأبيض.

ارفع وجهك، يا ولدي، لا تزال بقايا العبارة متواجدة، لكنها بهتت، فدقق النظر. لم يطمسها «مطيع» لا وهي محفورة على الطين، ولا وهي مكتوبة على الأسمنت، وسألته ذات مرة، بعد أن كبرنا:

- لماذا تركتها؟

فترقرقت الدموع في عينيه، وقال:

- كلما رأيتها استعدت أيام البراءة التي لوثتها الأهواء والمطامع.

كان «مطيع» يكبرني بسنة واحدة، تزاملنا في المرحلة الابتدائية، لأنه التحق بالمدرسة متأخرًا، ويبدو أنه اعتاد هذا التأخر، فرغم أنه صعد درجات التعليم الأساسي بانتظام ويسر، مستفيدًا من ذاكرة صلدة ولسان ذرب، فإنه تخلف في المرحلة الجامعية كثيرًا عن دفعته في كلية «دار العلوم»، ليقضي ثماني سنوات كاملة حتى يحصل على «الليسانس».

وكان يقول لأهل قريتنا إنه تخرج وتم تعيينه معيدًا بالكلية، ولم يكذبه أحد؛ لأن والده، الذي كانت أحواله المالية قد تردت بينما الكهولة تغزوه بلا رحمة، حكى للناس كثيرًا، والفخر يملؤه، عن المبلغ الذي يدسه ابنه في يده آخر كل شهر.

كنت أنا الوحيد، يا ولدي، الذي يعرف الحقيقة، وعاهدت «مطيع» على أن أصون سره ما حييت، ولم أخنه أبدًا، لكنه هو من كشف السر فيما بعد، بل كان يفتخر بتباطؤه في التعليم الجامعي، ويقول للناس:

- الدعوة تستحق التضحية بكل ثمين في دنيانا تلك.

ربما تدور في ذهنك أسئلة عجلى، يا ولدي، عن أمر «مطيع»، الذي يبدو أنه خارج البيت الآن، وتريد أن تعرف ما جرى له، ولماذا أتيت بك إلى عتبته؟ اصبر، سيأتيك كل شيء، ولا ترهقني بنظراتك الحائرة.

لا أسعى هنا إلى أن أغوص في أيام «مطيع» البعيدة، بل سأبدأ معك من النقطة التي تهمك، بعد أن أتيت على طرف من طفولته الغضة. والبداية كانت اليوم الأول من الحياة الجامعية، حيث التقطه الدكتور «راضي عبد الجبار» أحد الأعضاء القدامى في «جماعة الإخوان المسلمين» وعضو هيئة التدريس بالكلية، ورأى فيه عنصرًا واعدًا، فهو قروي نابه، يتطلع بنهم إلى تلبية احتياجاته المادية سريعًا، وحريص على أن يرطب ضميره الملتهب من الشغف بالدنيا بالمواظبة على الصلاة في مسجد الكلية. ولذا نشّن عليه الإخواني القديم واصطاده.

اصطاده، يا ولدي، كما اصطادك أتباع شيخك، الذي كان يعظ من على كرسيه خارج الجامعة، ويرسل صبيانه ليأتوا إليه بزبائن جدد، وكنت أنت أحد هؤلاء الذين تم اقتيادهم إليه عن طيب خاطر منهم، فلف عليهم الرجل العجوز خيوطًا حريرية قاسية، غطسوا بمرور الوقت داخلها، ولم يستطيعوا منها فكاكًا.

كنت تغيب طويلًا خارج البيت، وتعود في الليل مجهدًا، تدخل غرفتك، وتغلق على نفسك الباب. أيامها ظننت أنك تعيش قصة حب فاشلة، جعلت الكآبة تقيم في عينيك، ووجهك ينحرف بعيدًا عني كلما أرادت عيناي أن تصافحه. وقلت أحيانًا، إنك ربما تتكتم على أنباء فشل دراسي مزمن، لكن حين طرقت بابك وجلست أمامك، أحدثك كما أحدثك الآن، اكتشفت أنهم اصطادوك، بهذه الكتب التي تراصت على مكتبك.

التقطتها واحدًا تلو الآخر، كما تتذكر، وصرخت فيك:

- يريدون أن يطعنوني بك.

لم تفهم وقتها، فأبوك، المحامي الشهير في قضايا الرأي، أتعب هؤلاء القادمين من قعر التاريخ، وفنّد كل دعاواهم المتهافتة في أروقة المحاكم. شعراء وروائيون ومفكرون وفنانون، قصدهم أصحاب اللحى الطويلة بسوء، رموهم بتهم تتراوح بين التجديف بالدين إلى الارتداد عنه، فكان لساني وقلمي حائط صد، فارتد المعتدون على أعقابهم خاسرين وخاسئين. ربما نشّنوا عليك، واصطادوك، ليقولوا لي: وصلنا إلى عقر دارك، ونضربك من حيث لا تحتسب.

لم يكن أبو «مطيع» شهيرًا مثل أبيك، ويجر نجاحه عليه أعداءً تلو أعداء، بل كان فلاحًا بسيطًا، ورث ثلاثة أفدنة عن أبيه، وبمرور

الأيام لم تعد تعني شيئًا، فتبدل الحال من ستر إلى فاقة، وانفتح الطريق أمام اصطياد «مطيع».

ولم تستغرق عملية الاصطياد تلك سوى يوم واحد، أخذه فيه الدكتور «راضي» إلى معسكر أقامته الجماعة في «بلطيم»، عاد منه عضوًا بدرجة «محب»، وقاده تفانيه في الإنصات إلى كل ما يقال له وتنفيذه حرفيًا من دون تردد إلى أن يرتقي الدرجات في زمن قياسي ليصبح عضوًا «عاملًا»، فصار من الموعودين برضاء «مكتب الإرشاد»، لتنفتح عليه بركات من الأرض.

كانوا يسلمونه مبلغًا كبيرًا من المال، يوزعه على «المؤلفة جيوبهم» من الطلاب الفقراء الذين يقطنون المدينة الجامعية، لاسيما طلبة الطب والهندسة، لكنه يبدأ دومًا بذوي القربى من طلاب «دار العلوم»، وهو يقول في نفسه:

- منها تخرَّج إمامنا «حسن البنا» ومفكرنا «سيد قطب»، الذي ترك لنا ما نعود إليه كلما اشتد علينا الألم، وشعرنا بالهجران والخذلان.

وما أود أن أقوله لك الآن، يا ولدي، وأنت واقف أمام بيت «مطيع» تمعن النظر في الحروف الباهتة التي لا تزال راقدة فوق الجدار، إنه جاء إليَّ، وعرض عليَّ أن أنضم إلى «الإخوان»، وسألني ما أريد. زارني في كلية «الحقوق» ذات يوم، ووضع يده على كتفي، ورحنا نمشي في هدوء وظل القبة النحاسية الضخمة يهدهد رأسينا،

وعيوننا تمتلئ بصفوف النباتات الواقفة لتحرس الممشى الهادئ، وقال لي من دون مقدمات:

- نريدك معنا.

- معكم؟!!

فتنحنح وقال:

- نصرة الإسلام تحتاج إلى جهد كل المخلصين وأنت منهم.

فابتسمت، وهززت رأسي صامتًا في عجب، ففي تلك الأيام بالضبط كنت أقرأ كتاب «معالم في الطريق» وأناقشه مع أستاذي «منصور عبد الجليل»، وأنصت إليه وهو يعدد خطورة ما انطوى عليه، ويجذبني، بمرور الوقت، نحو «اليسار» وهو يقول: «كن مع ملح الأرض»، فتحل في رأسي كل بيوت الطمي ووجوه الفلاحين الضامرة، فأجد مَن أو ما يهتف في أعماقي: «هذا طريقك»، فأمضي منشرح الصدر، فاتحًا ذراعيَّ ليطوقا الدنيا بأسرها.

ولهذا ظللت يومها، يا ولدي، أنصت إلى «مطيع» حتى انتهى من عرضه، فرفضته، رغم رقة حالي، فأبوك لم يقايض على شرفه، ولا على ما يعتقد أبدًا، وطالما ظن أنه يمتلك إرادة لا تغلب، حتى رأيتك في هذه الليلة، تتجهم في وجهي، وعينيك ذاهبتين إلى الكتب القديمة، فقلت في نفسي: «وصلوا إليك يا فهمي»، لكنهم

لم يقتصروا على أخذ روحك مني وأنت أمامي، بل خطفوا جسدك أيضًا، وذهبوا بك إلى أقصى الأرض، وجعلوني ألجأ في يوم من الأيام إلى «مطيع» بعد طول هجران.

كان هو قد تخرج بعد أن أذن له التنظيم، وطلبوا منه قبول التعيين في مدرسة «البرجاية الإعدادية» على بعد سبعة كيلو مترات من بلدنا، وقالوا له إن مصلحة الدعوة تتطلب هذا، فرضخ، وطوى أحلامه بين جناحيه، بعد أن رفرفت كثيرًا في رحاب القاهرة الساحرة، التي حلم أن يكون من سكانها، ليقترب أكثر من «المرشد» الثالث للجماعة «عمر التلمساني»، رغم أن جيب «مطيع» كان مربوطا بخصوم المرشد داخل التنظيم، ولذا طالما وجد نفسه ممزقا بين ما يملأ البطن، وما يريح الضمير، وبمرور الوقت، ورحيل المرشد، صار مع مَن يملكون المال، وبيدهم الأمر والنهي.

جئت إليه، يا ولدي، في هذا البيت، وقفت أمام هذا الباب، وكان طلاؤه زاهيًا، وطرقته ثلاث مرات، فجاءني صوت زوجة «مطيع»، وكانت إخوانية بنت قيادي في الجماعة، فسألتها عنه، فردت في اقتضاب:

- في مشوار، وسيرجع بعد ساعتين.

فقلت لها:

- سأرجع إليه حين يعود.

وكنت أعرف أن مشاويره غالبًا تكون اجتماعات مع بعض قيادات محلية للجماعة ببندر «المنيا»، وقلت ربما هذه الصلة تساعده في أن يساعدني على معرفة أي شيء عنك، يا ولدي.

أعطيت ظهري للباب، وجال بصري في تلك الدائرة المنبعجة المحفورة في رأسي، فانهمرت حكايات الزمن البعيد، التي ثرثرنا بها هنا، ونحن ننتقل من لعبة إلى أختها، وجاءني صوتي ثغاءً رفيعًا حلوًا، هيج قلبي الموجوع، ففاضت عيناي، وتقاطر عليَّ تراب طالما تغبرت به أقدامنا في أيام البراءة، قبل أن تقول الشيخة «زينب» ما قالته، وتبدأ الهموم تتسرب إليَّ عن الآتي، الذي لم أكن أعرف شيئًا عنه، وراحت أيامه تولد من رحم الغيب في بطء قاتل.

انتظرت، يا ولدي، حتى سقطت الشمس خلف بيت الشيخ «إسماعيل» والنخلات التي تتمايل من بعيد عند طرف الجسر، وجئت فوجدته ينتظرني.

أخذني بين ذراعيه، وطبع قبلتين على كتفيَّ، ونظر طويلًا في عينيَّ، وكأنه يقرأ فيهما سبب زيارتي، بعد انقطاع طويل، ثم جلس، وأشار إليَّ فجلست إلى جانبه وهو يقول:

- أتابع أخبارك، وأرى صورتك مبتسمًا على صفحات الجرائد، وإن كان كلامك لا يعجبني في كل الأحوال.

فابتسمت، وقلت له:

- دع هذا الخلاف الآن، فأنا جئت إليك طالبًا العون.

هز رأسه مستغربًا:

- أمثلك أنت يحتاجني أنا؟!!

مددت يدي وقبضت على كتفه في لطف، وواصلت:

- طرقت كل الأبواب الكبرى، فلم أنتهِ إلى شيء، لجأت إلى وزراء وسفراء وضباط أمن كبار لأجد لديهم ما يبل ريقي عن امرئ الغائب، لكنهم جميعًا لم يأتوا إليَّ بأي خبر يقين.

ورميت بصري وكان الباب مواربًا، فبدت لي بعض أزهار متساقطة من شجرة «دقن الباشا» تتشاجر في دوامة ريح طارئة، وقلت له:

- كنا نتشاجر أيام الطفولة ونتصالح في ساعة واحدة، ثم اختلفنا أيام الجامعة، وذهب كل منا في طريق، لكن ما بيننا يجعلني أتوقع منك أن تصدقني القول.

اتسع وجهه بضحكة عريضة، متذكرًا لقبة القديم «أبو لمعة»، وقال:

- كانت تصرفات طفولية وانقضت، وأنا الآن واحد من رجال يحملون على أكتافهم هموم نشر الدين والانتصار لشرع الله.

ورغم أن أكاذيب «مطيع» لم تنقطع، وتأتيني أخبارها بين حين وآخر، فقد ضربت عنها صفحًا، فلم يكن هذا موضوعي، ولم يكن بين الممكن أن أجادله في شيء نسيه من اعتياده عليه، أو أقنعه بالتخلي عنه بعد كل هذه السنين من وسع الخيال وذرابة اللسان.

اقتربت منه على «الكنبة» العريضة، وقلت:

- أعرف أنك لن تدخر وسعًا في تخفيف ألمي.

أطرق صامتًا برهة، وهو يشعر بارتياح بان في وجنتيه وعينيه، وقال:

- كلي آذان مصغية.

واستفضت، يا ولدي، في تقيؤ كل أحزاني أمامه، وأنا أقاوم انكساري، فهذا الرجل كان آخر مَن كنت أنتظر أن أجلس أمامه يومًا وأنا أتوجع هكذا، لكن من أجلك هان كل شيء، وأغلى شيء، كبريائي.

ولما انتهيت شعرت بوخزة ألم في صدري، فوضعت يدي عليه، لكن «مطيع» لم ينتبه، أو تغافل وتركني لقدري. كان غارقًا في تفاصيل، لم أكن عاجزًا عن تكهنها، لكنه بالطبع لن يبوح بسهولة، فقد علَّمه «التنظيم السري» أن يكف عن الثرثرة، بينما ترك الكذب

والمراوغة يكبران داخله في هدوء، وكبرت معهما بعض طيبته الريفية، التي كانت تعلو أحيانًا فتطرد رائحتها الطيبة كثيرًا من العفن الذي أورثته إياه السياسة وألاعيبها، مثلما أورثتني أنا المحاماة أيضًا كثيرًا من المكر واللوع.

عاد من شروده القصير، وقال:

- أنت تعلم أن مَن انضم إليهم ابنك أناس آخرون غيرنا.

ورغم أن خبرتي الطويلة في قضايا الرأي أمام مختلف المحاكم جعلت ما يستقر في يقيني أنهم سواء، نهلوا من منبع واحد، وما بينهم من اختلافات هي فروق توقيت، وفروق تخطيط نحو التمدد والغلبة، فلم أجد بدًّا من مسايرته، فلم آتِ إلى هنا، يا ولدي، لأحاججه، أو أستعيد طرفًا من جدلنا القديم في الدين والسياسة.

ابتلعت كلامه، وسألته في هدوء:

- أليس بوسع قيادتكم أن تصل إلى قيادتهم؟

رد في سرعة شديدة:

- ليس الأمر بهذه البساطة.

وهنا وجدت نفسي أقول له، وأنا أدوس على الحروف، حتى لا يظهر غضبي:

- أنتم من صنعتم الجحر الذي انجذب إليه النمل من شتى أنحاء الأرض.

هز رأسه مستفهمًا، فواصلت:

- أقمتم معسكرات الإغاثة هناك على أرض باكستان، وساعدتم في تجنيد الشباب ونقله إلى ضفاف المعارك، ومن بينهم ابني، وجاء من بعد مَن أخذهم إلى قلبها.

وتنحنحت، وبلعت ريقي، وأطلقتها في وجهه:

- وكل هذا تحت رعاية الـ «سي. آي. إيه».

سرى في وجهه غضب، لكنه سرعان ما كظمه، وقال:

- أنت قلتها بلسانك: إغاثة. هذه كانت مهمتنا لنجدة المسلمين، أما ابنك فقد حمل السلاح، وسكن الكهوف، وخاض في النار والدم.

تجاهل اتهامي، المعلوم للناس جميعًا، وجماعته تنكره، ووجدت نفسي أنجر معه إلى جدل جديد لم أسعَ إليه، فأغلقت هذا الباب، وعدت أسأله:

- أيمكن لأحد من الإغاثيين هناك أن يكون لديه خبر عن ولدي؟

حملق في وجهي، ثم هز رأسه، وقال:

- سأفعل كل ما في وسعي.

كان يروغ مني، يا ولدي، وكنت أعرف وقتها أنني أطلقت ف
رأسه، بطلبي هذا، سيلًا من الوساوس والهواجس وأسئلة لا نها
لها.

هو كان يعرف طرقًا ليس بالقليل عن حكايتك، لكنه بدا و
جالس معي كأنني أملأ أذنيه باسم وكلمات وحكاية لم يسمع
من قبل.

خرجت من عنده ليلتها غير نادم على شيء، فقد كنت بالأساس
في زيارة لأمي، التي هي جدتك، بعد أن غبت عنها عدة شهور،
وكانت قد أعيتني الحيل في الوصول إلى أي خبر عنك بعد أن
طرقت أبواب الكبار. جئت إلى «مطيع» ومن قبله «ذكري» وأنا أردد
داخلي الحكمة التي تقول: «قد يضع الله سره في أضعف خلقه»،
فالكبار لم يفيدوني بشيء، وربما أجد الإفادة عند الصغار.

ولا أدري، يا ولدي، هل كنت فعلًا أطلب منهما مساعدتي؟
أم أبحث عن فرصة لأجيء على ذكرك مع أي أحد هنا، رغم أنني
كنت أهرب إلى القرية من عينَي أمك، التي كانت تعذبني نظراتها
الساهمة الناضحة بأوجاع معتقة، رغم أنها تعرف الحقيقة، وتفهم
أنني لم أرسلك إلى أفغانستان، وأنك غافلتني وهربت إلى هناك،
لكن ربما كانت مثلي مسكونة بوسواس يهمس في أذنيها ليل نهار:
«قصدوا ابنك من أجل كسر أنف أبيه».

ومع هذا كانت أحيانًا تحنو عليَّ، وتقول لتواسيني:

- قدَّر ولطف، هذا أخف كثيرًا مما فعلوه مع غيرك ممن يهاجمون تفكيرهم، اغتالوهم أو هددوهم بالقتل فانحبسوا في بيوتهم.

أما أنا فكنت أتمنى لو أنهم ابتعدوا عنك، وتركوك تمضي في المسار الذي تمنيته لك، وأمطروني أنا بوابل من الرصاص، فانتقلت في ثانية واحدة إلى الراحة الأبدية، بدلًا من القلق الذي كان يأكلني وأنا راجع من بيت «مطيع» المغلق بابه أمام عينيك الآن، حتى تمنيت لو انشق تراب هذه الدائرة المنبعجة، وابتلعني، ثم استوت الأرض فوق رأسي، وتشاجرت عندها أزهار «دقن الباشا» الخفيفة الوديعة.

العتبة العشرون

الطيب الذي يدفن وجهه في الذهب الأحمر المعلق عند طرف الأرض الغربي سيعطيك المفتاح من بين سطور الكتاب المُكَرم، وعليك أن تجد الباب، وأنت تائه بين الصحو والمحو.

هنـا، يا ولدي، العتبة قبل الأخيرة لدار ليسـت الأخيرة في قريتنا التي نسيها الزمن، لكنها الأكثر انتظارًا للقادمين. تقف الدار في وجه المسـجد، وتلثـم خده الأيمـن بمصطبة عريضة، تئن تحت عجيزة رجـل بدين، ذي وجه مسـتدير، يشـع نـورًا ذائبًا في بقعـة دم خفيفة وسيعة اسمه الشيخ «إسماعيل».

بعـد الظهـر تـرش زوجته «سـعدية» وجـه المصطبة بمـاء بارد، تأكلـه الشـمس وهـي تهـرب لتختفـي خلـف البيـوت والنخيـل. ويتدحـرج هـو بعد العصر، ويرمي ثقله، مسـندًا ظهـره إلى الحائط الخلفي للمسـجد، ويربع ساقيه، ثم يتنهد بعمق. يمد يده إلى جيب «الصديري»، ويخرج ساعة بيضاء ضخمة، ويطيل النظر إليها وكأنه يعد الثواني مراقبًا تقدم الزمن على مهل نحو النهاية، وبعدها يُخرج المصحـف من جيبـه، ويبدأ في تلاوة ندية عذبـة، لا ينتهي منها إلا حين يؤذن بالمغرب.

أسرع الخطى، يا ولدي، حتى نلحق به قبل رحيل النور، لنجلس إليه، ونعرف ما عنده، فربما تجد لديه ما يفيدك، ورب سـامع أوعى

من مبلغ. فلا تغرنك بساطة منظره، ولا رأسه الحاسر الذي يتظلل دومًا عمامة بيضاء، تطوق طربوشا أحمر مضلعًا، يبدو على ضخامته كقبة ضريح صوفي قديم.

ها هو، يا ولدي، جالس في مكانه الذي رأيته فيه آخر مرة. وها هو صوت تلاوته يأتي إلينا. أتسمعه؟ صوت أجش لكنه حنون، يفضي إلى البكاء. هل تخشع له مثلما أخشع أنا؟ أم أنك أدمنت الأصوات الزاعقة التي تحول كلام الله إلى قذائف صوتية، ثم إلى قذائف من لهب، تقتل الناس، بأيدي الجهلة والمتنطعين.

لماذا توقفت عن المسير؟ هِمْ خلفي يا ولدي، لنسمع إلى هذا الرجل الطيب الذي يُعلِّم أهل قريتي طرفًا من علوم الدين. لماذا تجهم وجهك من جديد؟ ابتسم، وليشرق وجهك، فعلى بعد خطوات منك رجل يكره العبوس. ما إن يجلس في مكانه حتى يرمي كل شيء وراء ظهره، ويبتسم في وجه الحروف التي أمامه، والعابرين الذين قد يمر بعضهم، ولا يلقون عليه السلام خشية أن يقطع تلاوته.

كذلك نحن، لن نجعل صوته يخرس، حتى لمجرد رد السلام علينا. سنمشي في هدوء، إلى أن نقف بالقرب منه، من دون أن يرانا، وعندها قد أضطر إلى أن أهمس لك بحكايات عن الرجل، لا تزال مترسبة في قعر الذاكرة.

أتذكره وهو محطوط فوق حماره، ماضٍ في طريقه إلى البندر، لبيض مرتبه كمقيم شعائر في هذا المسجد البسيط. حين يراه الناس راكبًا حماره، يقولون في صوت جماعي:

- جيب الشيخ «إسماعيل» سيدفأ اليوم.

يترك ركوبته عند رجل يقطن بالقرب من محطة قطار قرية «صفط اللبن»، التي وجد العمدة «حيدر» عندها «عطا الله» ذات يوم بعيد، ثم يرفع ثقله إلى إحدى عربات قطار الثامنة صباحًا، ليتدحرج في شوارع لا تُقبِّل قدميه، مارًّا بين أناس لا يعرفونه، ويعود والشمس ترفرف تحت سكاكين الضباب الأزرق المرشوش بالدم. يذهب هادئًا، ويعود هادئًا.

والمرتب لا يكفي، فيكمل الشهر بما يرزقه به الله من إحياء المآتم، وقراءة القرآن في البيوت. يطرق الأبواب، ويقول بصوت مرتفع: «يا ساتر»، فيؤذن له ليدخل ويتربع في صالة البيت أو مندرة الضيوف، ويبدأ في الترتيل. وفي مواسم الحصاد يعود عليه ترتيله بغلال تكفي أسرته طيلة السنة.

لم أجده، يا ولدي، يقول لأحد من الفلاحين إن ما مده إليه من قمح أو فول أو ذرة أو شعير قليل، كان يأخذ ما يجود به أي منهم، حتى لو كان حفنة واحدة، ويحمد الله، ويمضي في طريقه راضيًا. ولما كبرت سنه، وثقل جسمه، كلف ابنه «إبراهيم» بهذه المهمة، وأخذه إلى جانبه يدربه على التلاوة والترتيل في بيوت الناس.

لم يكن الشيخ «إسماعيل» متبحرًا في العلم الذي تحويه كتب قديمة، تحملها أنت في رأسك، وإذا سأله الناس عنها يتلو عليهم: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»، ويكتفي بتفسير «الجليلين» وآخر لمعاني الكلمات، وثلاثة كتب تضم خطبًا منبرية، يقرأها في أيام الجمع.

وحين يجلس في المسجد قبل الصلاة وبعدها يقصده الناس بأسئلتهم، فيجيب في بساطة على قدر ما في وجدانه وعقله، ويحكي بلغة يفهمها الجميع، ويجدون الدين جاريًا أمامهم في الحقول والبيوت والأسواق. دين للناس، يذوب في حياتهم، ولا يغيب، ويجدون أنفسهم في غنى عن أن يقولوا في كل لحظة أي شيء عنه، متباهين بما هم عليه، مثل أصحابك، أنت يا ولدي، الذين يتوهمون أنهم رسل الله، ولا يسيرون على الأرض هونًا، ويتعاملون مع مَن سواهم على أنهم المسوخ والكفار والضالون.

أرى ملامحك قد انقبضت، وامتلأت عيناك بالشك في كلامي. ربما تريد أن تذكرني بما يحدث لعائلة «أبو سعيد»، التي ينبذها الناس، لكن يبدو أنك قد نسيت أنني قد قلت لك إن كلام الشيخ «إسماعيل» قد بدأ يثمر أخيرًا. ومَن هو مثلك، أقصد «حسن» لم يكلم الناس في هذا الموضوع ولو مرة، بل ضبطته ذات يوم يقول لأحد الفلاحين:

- لو كنا في الزمن القديم، لصارت قريبات «أبو سعيد» إماءً لنا.

ونسي وقتها أن الرجل قريب له، ويدافع عنه.

أما الشيخ «إسماعيل» فقد صعد إلى المنبر في إحدى الجمع، وأخرج من جيبه المشط الذي يهذب به شعر رأسه، وقال للناس: «أنتم سواسية»، فهزوا رؤوسهم متطلعين، ثم راح يمرر أصابع يده اليسرى فوق السنون، وسأل بصوت جهوري: «هل تجدون سنًّا من هذه أوطى من غيرها، فردوا: لا. فقال: كذلك أنتم عند الله، لا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى، ولأن التقوى لا يحكم عليها إلا ربكم، فليس عليكم إلا أن تتساووا في الدنيا، ولا يميز أحدكم عن غيره إلا اجتهاد في عمارة الأرض».

كنت، يا ولدي، أسمع عن هذا الكلام في صغري، وحين طالني الوعي تعجبت: «كيف اهتدى هذا الرجل البسيط إلى الحكمة؟»، وسألته قبل سنوات قليلة، فابتسم، وقال:

- علَّمني في صباي رجل صوفي، درس في الأزهر، لازمته سنين، ألتقط كل ما يخرج من فمه، وكلما نطقت بلسانه تذكرته، لم يكن يقول لنا: هل حفظتم السورة؟ بل كان يسأل: هل فهمتم الآيات؟

لا أزال، يا ولدي، أتذكر حكاياته التي كان يضيف إليها بعض تفاصيل من خياله دون أن يشطط، عن الذين عاشوا في القرون الغابرة من الصحابة والصالحين. وذات يوم صرخ فيه «حسن»:

- هذه بدع.

فضحك طويلًا، ثم قال له:

- علَّمني شيخي أن كثيرًا مما كتبه البشر عن الزمن البعيد مجرد أساطير.

وتوتر الجامع بينما عيني «حسن» كانت تطلق شررًا، يتطاير على وجوه الجالسين، وكاد يهم ليوجه لكمة لوجه الشيخ «إسماعيل» لولا تدخل «أبو سعيد» ناهرًا «حسن»:

- ليس منا مَن لم يوقر كبيرنا.

لكن شيخ الجامع أصر على ما يقول، وزاد عليه: «كان شيخي يحذر تلاميذه من أن يستسلموا للتخاريف، التي سكنت بعض التفاسير، ومن التاريخ الذي صار كثيرون يقدسونه». ثم التفت إلى «حسن» وقال بصوت جهوري غير عابئ بغضبه:

- مَن علمك، يا بني، أن تضع كلام البشر مكان كلام الله؟ أنا أذهب إلى «كتاب الله» مباشرة، بلا واسطة، وما قصدت آياته، إلا جادت لي بما انطوت عليه، وما أحكيه للناس ليس خرافات، ولا بدعًا، إنما أختار الحكايات المعقولة، وأنقي ما لا يعقل منها مما علق بها مما تسرب إليها من أصحاب الذمم الخربة، والخيال المريض، ثم أحكيها للناس بما يتآلف مع زمانهم هذا.

وعندها اقترب «أبو سعيد» من «حسن»، ووضع كفيه أمام عينيه، ليصد الشرر المتطاير، ونظر إلى كل الجالسين، وقال:

- الشيخ «إسماعيل» يعي ما يقول، فهو تلميذ رجل شهد له كل الناس بالعلم والصلاح.

لم يكن «حسن» هو الشخص الوحيد، يا ولدي، الذي يجادل الشيخ «إسماعيل»، فذات ليلة أنصت هو إلى ما يقوله أحد الوعاظ الغرباء من «جماعة التبليغ والدعوة» فلم يعجبه كلامه. كان الرجل يتعتع ويعنعن بلا معنى، ويتوه محاولًا أن ينطق بلغة عتيقة مهجورة حتى يبهر الناس، ويجهد أسماعهم وأذهانهم فيقفون أمامه عاجزين.

وعندها توجه إليه الشيخ «إسماعيل»:

- يَسِّر للناس ما تقوله يا بني، اهضم ما قرأته في الكتب القديمة، وانطق بلسان زماننا.

تلعثم الرجل، فقد كان يظن أن قريتنا تخلو من أصحاب العلم، وكان يجلس مسترخيًا، متوهمًا أن حديثه يأخذ ألباب الناس، ولا يعرف أن الوجوه الساهمة، والعيون المبحلقة فيه لا تعبر عن انبهارها، إنما عن حيرة وتخبط. وبعد أن لسعته العبارة التي قالها الشيخ «إسماعيل» اعتدل الواعظ الغريب في جلسته، وراح صوته ينخفض تدريجيًا، ثم لم يلبث أن استرد عافيته التي تداعت وانفرطت، وفتح في دهاء بابًا للمناظرة، فسأل الشيخ «إسماعيل» عن «الدليل الشرعي» على ما يقول.

عندها ابتسم «إسماعيل»، وسأله في هدوء:

- عن أي دليل شرعي تسأل؟ إن لكل أمر أو شيء ما يدل عليه، أما أن نقول هذا شرعي أو غير شرعي، فعلى أي أساس، يا بني، ألم تقرأ أو تسمع عن طلب الرسول لنا بأن نستفتي قلوبنا، فالحلال بيّن والحرام بين، وبينهما عفو، وهو الأغلب.

فامتقع وجه الرجل، وقال في غضب:

- كلامك لا يطابق رأي أهل العلم.

فاقترب الشيخ «إسماعيل» منه وربت كتفه، وقال:

- مَن الذي حدد أن يكون هناك ما تسميه «دليل شرعي» لكل حركاتنا وسكناتنا، لنعرف كيف نزرع ونحصد، ونضحك ونبكي، ونأكل ونشرب ونذهب إلى المراحيض، ونستمتع بزوجاتنا، ونجلس ليلًا لنتسامر أو نلعب الدومينو في غرزة «صبيح»؟

- علماء الأمة.

- وهل هم وكلاء عن الله؟

- لا.

- هل وردت في القرآن آية تقول لنا ابحثوا عن الدليل الشرعي؟

- لا.

- هل الرسول أوكل لأحد أن يجلس وينتش عن هذا الدليل؟

- ليس على هذا النحو المباشر، لكن العلماء موكلون.

- وهل ما يستنتجونه مقدس؟

- لا.

عندها قهقه الشيخ «إسماعيل» فازداد وجهه احمرارًا، ورأيته في هذه اللحظة منتشيًا بانتصاره، رغم أنني قلما رأيته يتيه على الناس بعلم أو إلهام. كتم ضحكته الطويلة، وقال للواعظ الغريب:

- هم رجال ونحن رجال.

ثم نادى «أبو سعيد» ليقيم الصلاة. وبعد أن فرغ منها، ذهب إلى بيته صامتًا، وهو يكفكف دموعه، بينما رأسه مطأطأ، يكاد يمس بطنه الكبير، وينقل قدميه بين أحجار ضخمة متناثرة من كومة عالية، رماها جاره بالأمس، ليبني بها جدارًا قد ترنح ثم انقض.

عاد الشيخ «إسماعيل» بعد ساعة، وخلفه ابنه «إبراهيم» يحمل صينية عليها أطباق من البيض المقلي والجبن الطري والعسل الأسود واللفت المخلل. وصعدا سويًّا درجات سلم الجامع، وكان المصلون قد انصرفوا إلى بيوتهم، ولم يبقَ سوى الوعاظ الغرباء، المعتكفين في المسجد، حيث انتحوا جانبًا، وفرشوا فوق إحدى حصر البوص، الزائدة، طولًا وعرضًا، منديلًا كبيرًا محشوًّا بكسور الخبز والجبن القديم.

أشار الشيخ «إسماعيل» إلى ابنه أن يضع ما يحمله، فأسند الصينية على الأرض في هدوء، لكن هذا لم يمنع اهتزاز طبق العسل، فسقطت ثلاث قطرات على الحصير. مد «إسماعيل» أصابعه ومسحها، ثم راح يلعقها، وهو يحط جسده إلى جانبهم، ويقول:

- حتى يكون بيننا عيش وملح.

وما إن انتهوا من طعامهم هذا، حتى كان «إبراهيم» قد حمل براد الشاي الكبير واقفا كملك على صينية من الخزف تكاد الورود المطبوعة على حواشيها ترسل رائحة زكية إلى أنوف الجالسين، وحوله أكواب من الزجاج الشفاف، لها آذان مصمتة ذات ملمس خشن، تستريح الأصابع للإمساك به. وكانت ليلة مختلفة مع هؤلاء الوعاظ المتنقلين من بلدة إلى أخرى.

وقبل أن ينهض الشيخ «إسماعيل» عائدًا إلى بيته ليستريح، ويتركهم يكملون طقوس اعتكافهم أو يناموا، عرض عليه كبيرهم أن يخرج معهم في سبيل الله. فضحك الشيخ وقال:

- أنا قاعد هنا في سبيل الله، والأقربون أولى بمعروفي إن كان عندي ما أقدمه لهم.

تفهم الرجل كلامه وموقفه، وهو ما لا تتفهمه أنت أبدًا، يا ولدي، وتعتقد أن سبيل الله لا يكون إلا في السفر والهجرة. نظر الرجل إلى الشيخ «إسماعيل» في امتنان، وقال له:

- عندك الكثير يا شيخنا.

هكذا هو الشيخ «إسماعيل»، يا ولدي، يجيب على قدر السؤال، وكلما أجاب تساءل من جديد، حتى لا تعرف إن كان مجيبك يسألك أو سائلك يجيبك، وفي كل الأحوال هو يشاطرك الحيرة، وإن سألته يرد عليك: «هكذا علمني شيخي، وكان غزير العلم».

وكنت أراه أحيانًا جالسًا على الدرجة الأخيرة للسلم المؤدي إلى باب الجامع، ووجهه معلق بالمغيب. وهذه عادة تلازمه، وعيت عليها وأنا طفل ألعب تحت شجرة النبق العالية، في الساحة الوسيعة أمام الجامع. لم تعد الشجرة متواجدة، كما ترى يا ولدي، قطعها العمدة «حيدر» أيام تجبره؛ لأن بغلته تعثرت في جانب من جذعها، فالتوت رجلها.

كان الشيخ «إسماعيل» يدفن رأسه في الشفق، والدموع تقطر ساخنة على خديه، وينسى أين هو؟ ومتى هو؟

وحين كبرت سألته عن هذا الطقس، الذي يمارسه مرة في الأسبوع على الأقل، فصمت برهة، ثم قال:

- يذهب بعضنا إلى النهر ليغسل جسده، لكن أغلبنا ينسى أن يغسل روحه.

تعجبت لكلامه، وسألته:

- وأين نغسل أرواحنا؟

فأشار نحو الغروب:

- في الشمس.

فاجأتني إجابته، وفكرت فيها قليلًا، لكنني لم أحط بها خبرًا، وشردت في متاهات عديدة، لأعرف عن أي أمر يتحدث، إلا أنني عدت إليه، لأستجلي ما قاله، فسألته:

– هل دفء الشمس يغسل الروح؟

– بل يغسلها الشجن.

ولذت ساعتها، يا ولدي، بصمت مطبق، غارقًا فيما يقول، لكنه لم يدعني حائرًا في التفاصيل. تنهد حتى كاد يلفظ رئتيه على كفيه، وقال:

– الغروب يذكرني بنهاية كل شيء، وكل أحد، وبالفراق الذي لا محالة آت.

وتنهد مرة ثانية وواصل:

– تغيب هنا لتشرق في مكان آخر، وهكذا في دائرة لا تنتهي إلا حين يأذن لها الله. أما نحن فلسنا سوى جزء ضئيل من هذه الدائرة العملاقة، التي تسع الكون كله، المستدير بلا بداية ولا نهاية. نحن جزء له بداية وله نهاية هنا على الأرض مثل قرص الشمس، الذي يولد ويموت أمام أعيننا في ساعات قلائل.

ثم مد ذراعه ووضع كفه فوق كتفي، وبيده الأخرى أدار وجهي نحو قرص الشمس السابح في الدم المشع، وقال:

– أرى دومًا نعشي يرفرف هناك متأرجحًا بين الأحمر والأزرق والأصفر، ثم يذوب تمامًا في الشفق. وأشعر أن آخر نفس لي في

هذه الدنيا سيخرج في لحظة تكون فيها الشمس تتساقط خلف الجسر والنخيل.

ها هو جالس، يا ولدي، في مكانه بينما الشمس ترحل على مهل، وتسحب شعاعها الذابل من فوق جبينه، ومن على صفحات المصحف المستيقظ بين يديه، لكنه لا يقوم من مكانه، ويذهب ليدفن وجهه في الشفق، فكما قلت لك، هذه عادة أسبوعية، يمارسها كل يوم جمعة؛ لأنه اليوم الذي ينتهي فيه الأسبوع، فينسجم الأمر مع مشهد النهايات المعروض في ذيل الأفق، عند جذوع النخل وشواشي الزرع والمساحات التي تطير فيها الفراشات المنهكة.

اقترب، يا ولدي، لنصل إليه قبل أن ينهض، فصلاة المغرب قد جاءت، وها هو يغلق المصحف، ويمد كفيه ليسند كل جسده، مرتفعًا قليلًا عن المصطبة، قبل أن يعتدل ويتدحرج نحو سلم الجامع، ليؤم الناس في الصلاة، فقد مات منذ سنين «أبو سعيد» الذي كان ينوب عنه أحيانًا، فيرتاح هو للصلاة قاعدًا في طرف الصف الأخير.

ها هو قد ترك المصطبة وأعطانا ظهره، لم يرنا على ما يبدو؛ لأنه لو رآنا لوقف حتى نذهب سويًّا لمصافحته. هو يعرفني بالطبع، ويعرف أحزاني، ويعرفك أنت من كلامي عنك، فطالما مد يده، وكفكف دموعي، وأنا أفيض أمامه، لأفك اختناقي، حين آتي على ذكرك.

لكنه يخطو نحو الشمال، ويتركنا وراء ظهره واقفين. أترى من الأنسب أن نهرول نحوه لنسلم عليه؟ أم ندعه غارقًا في المعاني

التي أهدتها إليه الآيات التي كان يتلوها قبل قليل، ولا نقطع عليه شروده المؤقت في الإشراقة التي ربما برقت في خاطره وذهنه؟

لكن، كيف يا ولدي، هان عليه الوجع الذي لملمه كثيرًا من عيني، وأنا جالس أمامه، لا سيما في تلك الليلة التي لا أنساها؟

جئت إليه طائعًا أمر جدتك، حين قالت لي في حسم:

- اذهب إلى الشيخ «إسماعيل» ليفتح لك الكتاب.

رحت بعد صلاة العشاء، يا ولدي، أُنقل قدميَّ المتعبتين، ووصلت إلى بيته، لكني توقفت قليلًا أمام المصطبة المرشوشة، لأجدها تحضن حصيرًا من البوص، والحشية الطرية ملقاة إلى جانب الجدار، وقد زحفت إليها برودة المساء، وخيوط الحرير الباهتة التي تزركشها تلمع في ضوء لمبة الكهرباء. طرقت الباب فجاءني صوته الأجش:

- ادخل.

لكنني وقفت مكاني، وقلت له بصوت مسموع:

- أريدك هنا يا شيخنا.

فخرج لي في جلباب أبيض خفيف، وعلى رأسه كوفية خضراء، وفي قدميه شبشب أبيض. مد يده وصافحني، فأشرت إلى المصطبة فوضع ذراعه في ذراعي، وتوكأ عليَّ حتى وصلنا إليها، جلس إلى جانبي يلهث، وبعد أن استرد أنفاسه المبهورة قال:

- خير يا أستاذ؟

ليلتها حكيت له كل شيء، منذ أن تركتني واقفًا على سلم البيت، صوتي يلاحقك، وصوت قدميك يخفت رويدًا رويدًا حتى يخرس تمامًا. استعدت هنا على هذه المصطبة تفاصيل كنت أظنها قد تبخرت من رأسي إلى الأبد.

ولما انتهيت، نادى زوجته فجاءت بخطى وئيدة، وهي تجذب «الطرحة» لتغطي أنفها وفمها، فقال لها:

- الأستاذ «فهمي» ليس غريبًا.

فأسرعت الخطى، وصافحتني، وطلب منها أن تأتي إليه بالمصحف، فغابت قليلًا ورجعت، ووضعته جانبه فوق الحصير، فأمسكه بيمينه، ثم أخذ يتمتم بأدعية لم أتبينها على وجه الدقة. كان قد أغلق عينيه، وتاه طويلًا، حتى ظننت أنه قد نسي وجودي معه، وفجأة مد يده، والتقط المصحف، من دون أن تتوقف شفتاه عن الحركة، ثم فتحه، وراح يقرأ بعينيه، ولا أسمع له صوتًا. وبعد أن انتهى صمت برهة، وقال:

- يحضر الغائب ويغيب الحاضر، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وطلبت منه أن يفسر لي ماذا يقصد بما قاله، لكنه أبى متذرعًا بأن «المصحف» لم يمنحه في هذه اللحظة سوى ما نطق به، وهو لا يستطيع أن يتقوّل على القرآن.

ترى، يا ولدي، ماذا كان يقصد حقًّا؟ أيمكنني أن أسأله الآن من جديد، وأنت معي، ربما يجود بما ضن به عليَّ فيما مضى.

سنوات طويلة وأنا حائر فيما قصده الشيخ «إسماعيل» من عبارته التي ألقاها في وجهي وصمت، وفي عينيه وجع، وعلى وجهه انقباض. ولا أدري إن كان يعني أنني سأسافر خارج الوطن؟ أم أسافر داخلي مسجونًا في ذكرياتي الأليمة معك؟ وأنك أنت ستهجر الغربة الطويلة وتعود، لتدب قدماك في شوارع القاهرة، مزهوًّا بخطواتك المتثاقلة مثلما اعتدت دومًا؟

ها أنت قد عدت، فكيف أغيب أنا؟ وكيف حين أمد يدي لا أحس إلا بيدي أنا، فأين يدك يا ولدي؟ وكيف أغيب وأنا هنا؟ أرى نفسي واقفًا فوق تلك البقعة المحاذية للجامع، وجهي إلى ظهر الشيخ «إسماعيل» الذي يدخل المسجد، بينما قرص الشمس يسقط خلف ظهره، فاتحًا الباب لغبش الليل الذي يزحف بلا هوادة، ليحجب عنا الزروع والبيوت والوجوه.

العتبة الحادية والعشرون

هنا في مكاني، ستكون السيدة التي أمامي عجوزًا تتوكأ على أيامها الطويلة التي تمر في هدوء، وستكون أنت قد غزا الشيب فوديك ومفرقك. هنا قد تجد كل شيء بين يديك، أو في رأسك، صلبًا وهواءً، امتلاءً وخواءً، فتريث ولا تظلمني، فليس كل الغائبين لا نراهم، وليس كل الحاضرين نراهم، والحاضر في غيابه أفضل من الغائب في حضوره، فلتسكن أوجاعك باسم الله، ولتهدأ نفسك بفضله. ولتعرف أن لكل بداية نهاية.

هـا هي الخطوة الأخيرة قد جاءت، يا ولدي، ولكل شـيء آخر، فكما ابتدأنا نعود، ليس إلى أول بيت في قريتنا، بل إلى بيت البيوت بالنسـبة لـي، وبالنسـبة لـك. البيـت الذي لا يـزال صوت الشـيخة «زينـب» يتردد بين جدرانه القديمة، ولا تـزال نبوءتها ترفرف تحت السـقف وأمام كل العيون وبين خيوط العناكب التي نسجت حياتها في غفلة من جدتك التي تهش الزمن في هدوء.

هنـاك فـي غرفـة لا نوافذ لها، وفي جوف سـرداب كـان يطوق بندقيـة جدك، ينـام خطابك الوحيـد. جئت به إلى هنـا لأخبئه عن أمـك. قرأته أنا مئات المرات، حتى حفظته، ثم تركته يتمدد ملفوفًا بالعتمة. أما هي فلم تقرأه أبدًا. كانت تسـألني كل يوم: «هل أرسل خطابًـا؟»، وكنت أهز رأسـي نافيًا، وأداري عيني حتى لا تكتشـف كذبي.

تـرى، أهـي المصادفة التـي جعلتني أضع خطابك مكـان بندقية جـدك؟ أم هو شـيء ما أشـرق في رأسـي وقادني إلى هـذا وأنا بين الحضـور والغيـاب؟ أم كنت فـي وعي تـام وأنا أفعلهـا؟ فخطابك

قادم من جوف الحرب، وكلماته قاسية كالرصاص، ولهذا استقر في مكانه الطبيعي.

كنت كلما نزلت في زيارة لجدتك، ألثم رأسها بقبلة خاطفة، وأجري إلى الغرفة الداخلية، وألف جسدي في رقائق العتمة، ثم أدس يدي في السرداب، لأطمئن إلى وجود خطابك. أمد أصابعي وأخرجه في هدوء، وفي بقعة الضوء المتسرب من كوة جانبية أجلس وأقرأ، وأقرأ، وأناديك، ولا تسمع، وتتساقط دموعي على الورق، ولا أجد كفك لتشربها عن خدي.

أمد يدي، يا ولدي، دون أن تسمع أذني احتكاك أصابعي بالورق، لأسحب خطابك، كأنه أنت أيام رضاعتك، نائم لا أريد أن أزعجك. أسحبه حتى تغادر يدي السرداب تمامًا، وأضعه أمامي في امتنان، وتمسح أناملي التراب الذي رقد فوقه خلال غيابي، أفعل كل شيء صامتًا، وعلى مهل، كأني سأعيش ألف عام.

ودموعي التي أخبرتك أنها تتساقط على الورق، تحتبس خلف مقلتي، ثم لا تلبث أن تتقاطر على حروف مكتوبك، ويكون لديها وقت كافٍ لتجف وتتقدد، حيث أتركها شهورًا، وأذهب إلى أكل عيشي، لكن مائي المملح الحار، يطلق سخونته في الحبر القديم فيسيح على ضفاف السطور.

منذ أن تسلمت خطابك طويته على شكل أسطواني، ليأخذ شكل المكاتيب القديمة، التي كان يرسلها الملوك والخلفاء إلى

بعضهم بعضًا وإلى ولاتهم في الأمصار كافة، فهذا الشكل هو الذي يليق بك، ولا تفهم شكلًا دونه. طويته وطوقته بشريط من القماش الأحمر، ورششت فوقه زخات من زجاجة عطري المفضل. ها هو العطر يتوه في رائحة الغبار المعتق، ويموت في تلافيف العتمة الراقدة بلا حراك.

لكني لا أحتاج، يا ولدي، أي عطر، فيكفيني أن أصابع يديك لمست هذا الورق، ولأنه وصلني منك في صيف قبل سنين فلابد أن عرقك قد امتزج بهذا الحبر الأزرق الذي يبهت، وكأن عيني تأكله كلما طالعته.

وبينما عيني تطالع الورق الملفوف، وأصابعي تمسح التراب على مهل، أمد وجهي، حتى تصل شفتي إلى خطابك، فأنهمك في تقبيله بنهم، وكأنني التقيتك بعد كل هذا الغياب، وكأنك جئتني تائبًا نائبًا، وجثوت على ركبتيك أمامي، واعترفت بأن التجربة قد علمتك. وكأني وجدتك تطلب مني أن أصحبك في رحلة إلى هذه القرية الغافية الآن، أدور بك على البيوت التي وصفتها لك، وحكيت لك كثيرًا عن ساكنيها الذين تركها أغلبهم خلف ظهورهم وذابوا في فجاج النور المبهر البعيد. هذا النور الذي تعتقد، يا ولدي، أنه لن يغمر أحدًا سواك أنت ومَن حملوا معك السلاح في دروب الصحراء وبين أفلاق ضخمة لجبال ستأتي شاهدة عليكم يوم الحشر العظيم، وأن أباك وكل مَن يسير في طريقه ستأخذهم نار تلظَّى.

هنا في حضرتك وأنت غائب، وفي غيابك وأنت حاضر، بخطابك وذكرياتي معك وألمي، أنسى كل شيء، وكل أحد، وأتفرغ لترويض الوجع، وتربية الأمل. ألم وأمل، ممتزجان تمامًا، يقيمان في نفسي بلا حراك.

تأتي جدتك، وتجلس إلى جانبي، تأخذ رأسي الحليق في حضنها كما كانت تفعل في الزمن القديم، وأشعر بسخونة دموعها بين بويصلات الشعر النابت. تتنهد في عمق، وتقول:

- زعلته فهجرك، وسكنتك روحه، وطار عقلك.

أرفع عيني لأرى الزمن النائم على وجهها، فأمد يدي وأهشه، فينداح في قلب الظلام الرائق.

لا تزال جدتك، يا ولدي، تشرق حين تلمس أصابعي وجنتيها، مثلما كان يحدث وأنا صغير أرتع في حجرها الفسيح، وأملأ عينيها والمكان بابتساماتي الغضة. ابنها الوحيد أنا، مثلما ابني الوحيد أنت، والجدة ملتاعة على حفيدها، فولد الولد أغلى من الولد ذاته.

تتوه قليلًا وتأتي بصورة الشيخة «زينب»، وتقول:

- كل ما بينته تحقق.

فأجد الصورة جالسة في مكانها، الذي كان ويكون، عيناها صغيرتان، ويدها ممدودة لتأخذ تلقيمة شاي، ترميها في فمها، أستعيد مرحها الصغير وامتنانها العميق، وأقول:

- كانت بركة، لكنها جعلت الحزن يسكنني بدري.

- وسكننا جميعًا لأننا جرَّبنا صدقها في أمور كثيرة.

- يا ليتها تركتني أواجه مصيري من دون أن يعرف يومي غدي.

- واليوم تحتاج إلى مثلها لتقول لك ما سيحدث غدًا.

- لا يهمني منه سوى أن أعرف أين هو؟

- ما يضنيني ليس غيابه الآن بل غيابك أنت.

ثم تصمت برهة، وتنهنه:

- ضاع هو في بلاد بعيدة، وضعت أنت في بلادك.

أرفع وجهي لأطالع عينيها. أدقق فيهما طويلًا وأقول لها بحدة:

- أنا هنا أمامك، لم أضع.

لكنها ترمي يديها في الفراغ، وتصرخ بصوت واهن:

- مع مَن تتحدث منذ أن أتيت؟

فيمتلئ وجهي دهشة، وأرد في ثقة:

- مع ابني.

- ابنك؟

- ابني.

– لا ابن لك هنا. درت على بيوت البلد وأنت تكلم نفسك، ورآك الناس وأنت تهيم على وجهك، قدماك تتقدمان في بطء، وفمك لا يكف عن الثرثرة، وعيناك تمتلئان من البيوت التي لم تعد سوى في ذاكرتك، تركتها سنين وعدت ولم تجدها. ذهبت كما ذهب، وعدت غير أنت، ولم يعد هو، ضاع هو هناك، وضعت أنت هنا.

جدتك تحكي عني وعنك، ولا أعرف كيف تراني ولا تراك. أنا أراك، وأكلمك، وأمسح عيني في جسدك الفارع الواقف أمامي. لا تكلمني لكنك معي. هي لا تسمعك ولا تراك؛ لأن الألم لا يكوي صدرها على قدر ما يكويني أنا. أنت وإن كنت حفيدها فهي لم تضمك إلى قلبها مثلما ضممتك، فقد ولدت بعيدًا عنها، وكبرت أمام عيون أخرى غير عينيها، وكنت تأتي معي إلى تلك القرية لتراك جدتك قليلًا، ضيفًا تأتي وعلى الحال نفسها تعود. وحين سكنك التجهم، وزمجر في نفسك الخراب لم ترغب أبدًا في المجيء إلى هذا المكان، الذي طالما وصفت ساكنيه بالعائشين في جاهلية، وانشغلت فقط بشيخك، وكتبك العتيقة.

أمد يدي الآن، يا ولدي، فأمسك جسد جدتك الذي قدده الزمن، وأمد يدي إليك فأمسك الفراغ، لكنك أمامي، على الهيئة ذاتها التي كنت عليها حينما رأيتك للمرة الأخيرة. لم تنل الأيام منك أبدًا، فالذين يعيشون في الجبال ينساهم الزمن على قدر توحدهم مع مكان لا تتبدل فيه الصور.

كيف تقول هي هذا وأنت معي؟ ذبل بصرها في تلافيف شيخوختها القاسية، فلا يرى غيري؛ لأنها لا تعرف أحدًا في هذا العالم بأسره كما تعرفني. أنت لم تعرفك على القدر الذي يتيح لها أن تراك كما أراك. تشم رائحتك التي أشمها، وتنعم بصمتك الشامل كما أنعم أنا بعد سنوات من الصخب الهادر بيننا، وتلمح طيفك الذي ألمحه.

هي تريد أن تقول إنك مجرد شبح في رأسي أنا فقط، محض خيال يتراقص أمامي ثم يثبت فتكون أنت، إنها تخاريف الشيخوخة التي أعرفها جيدًا، فقد رأيت في حياتي كثيرين ضاع كل ما في رؤوسهم، ليبقوا مجرد قطعة من لحم تكسو عظامًا هشة، ولا تصد إلا الريح العويل.

أما أبوك فلم يسقط في فخ الكبر، وإن انحنى ظهره قليلًا من غيابك، يقترب منك ويناجيك، ويرسم لك ما فاته أن يرسمه في الزمن الذي ولّى بلا رجعة.

ها هي جدتك تنسحب قانطة بعد أن أخفقت في إقناعي بتخاريفها التي تذوب في العتمة، ولا يبقى لها أي أثر. تنسحب صامتة متوكئة على عصاها الغليظة، وتتركني معك، لأسألك عما لقيته في سفرنا هذا، عن الناس والبيوت والزمن الذي سار على مهل في شوارع قريتنا، فزرع وحصد وترك أشياء كثيرة هشيمًا، تختلط بطلع النخل

الواقف ليحرس كل دار. تمتزج به، ويسافران معًا، ويحطان هناك عندي في المدينة، في شوارع غير الشوارع، وبين أناس غير من رأيتهم هنا، يا ولدي. تأتي الحكايات، وصورة خطابك، وطلع النخل، والأحجار التي نلقيها إلى الماء فتصنع دوامات لا أراها لكنها تملأ ذاكرتي.

أسحبها في هدوء، ثم أجري كالمجنون إلى دولاب ملابسي، ألقي بعضها في حقيبتي الجلدية المنبطحة أمامك هنا، فاغرة فاها الوسيع جدًّا، تحت السرداب، كلما جئت إلى هذه الحجرة الفطيسة، أضعها تحت هذا الجيب الرفيع الناتئ في بطن الحائط، لأنه يحوي خطابك. أمد يدي وآخذ الخطاب الملفوف، كما يستدير كل شيء، وتولد النهايات من البدايات. أهدهده كأنه أنت في أيامك الأولى، أقرأه وأعيد قراءته، مرات ومرات، رغم أنني أحفظ ما فيه عن ظهر قلب، لكنني أشتاق إلى مطالعة حروف خطها يمينك أنت، يا ولدي، أطيل النظر فيها، وأرى السطور شوارع وحارات تنام تحت وقع خطواتك، وأنت تسير إلى الحضانة، وإلى المدرسة، وإلى الجامعة، ثم إلى المطار، فتغيب، وأفتش عنك في دموعي، وطيفك الذي يتقلب أمامي، يعيد حالاتك التي كنت عليها: قطعة لحم حمراء، ثم فم يلقم ثديًا أعرفه جيدًا، كائن جميل يحبو. تلميذ ينتظر «باص» المدرسة إلى جانبي. مراهق يختلي بأحلامه، محملقًا في الفراغ، ويعبث لاهيًا في شعر قليل متناثر نابت في ذقنه. طالب جامعي ينسحب

تدريجيًّا من الفرح والأحلام إلى التجهم. وأنت خريج جديد، ترفع لحيتك الكثة في عيون الناس، وفي عينيك أنت احتقار لهم.

علَّموك، يا ولدي، أنك أنت وإخوانك فوق كل الناس، أن أنفك أطول من أنوفهم، وهاماتهم لا تطاول ركبتيك، فرفعت رأسك عاليًا حتى في وجه أبيك، بل رفعت صوتك حتى كان يرج أذني المتعبتين، وأنا أضع إصبعي في فتحتيهما، وعيناي تطلبان منك السكوت، لكنك لا تفعل.

يأتي الآن صوتك، ولا أسد أذنيَّ، بل أتركه يدوي، وأسمع صداه يتردد بين جدران الغرفة، ثم يسكت فأسمع صوت الصمت هسيسًا وطنينًا وأزيزًا بعيدًا. أترى أن صوتك راح ينكمش ثم اندس في السرداب إلى جانب خطابك الأول والأخير الذي كفَّرتني فيه؟ لكن حين يسكت صوتك أرى صورتك مرسومة على الجدران تكاد تضيء العتمة. إنها صورتك أيام الطفولة البريئة وأنت تبتسم، ثم لا تلبث أن تزحف عليها لحيتك التي تطوق كل هذه الجهامة، فينطفئ النور، لكنه يشرق في قلبي، فتُفتح كل الطرق المؤدية إلى أول القرية، حيث الترعة المردومة التي كنا نسبح فيها لاهين، وصغار الضفادع تمرق من بين سيقاننا، وحيث أول العمر الذي كنا نسبح فيه غير عابئين بشيء، حتى جاءت الشيخة «زينب» ورسمت أمامي عتباتها الإحدى والعشرين.

تزاوج بين واقع معيش وآخر فنتازي، وراوٍ غير تقليدي، لديه مخزون من اللغة الثرية والقيم الاجتماعية والموروث الشعبي والطريقة المصرية في التدين.

د. ثناء أنس الوجود، أستاذ اللغة العربية بجامعة عين شمس

تنطوي الراوية على منازلة بين التنوير والظلام، وبين الكلام الذي يعبر عن فعل إيجابي؛ والصمت الذي يبين العجز وقلة الحيلة، وهذا يتم وسط حكاية أثيرة، وبلغة رائقة عذبة، محملة بثمار ناضجة.

د. عايدي علي جمعة، أستاذ الأدب والنقد بجامعة أكتوبر

لوحة أدبية زاخرة بالرؤى الاجتماعية والسياسية، يقف خلفها حس روائي جلي، وتصنع نصًا مفتوحًا على تأويلات متعددة، يقع في قلبه بطل تتماهى شخصيته مع شخصية مصر بأسرها.

ربيع مفتاح، كاتب وناقد

عمار علي حسن، يحمل الدكتوراه في العلوم السياسية، وصدرت له خمس روايات: "سقوط الصمت"، و"شجرة العابد"، و"زهر الخريف"، و"جدران المدى"، و"حكاية شمردل"، وثلاث مجموعات قصصية: "عرب العطيات"، و"أحلام مسنية"، و"التي هي أحزن"، وله عدة كتب في النقد الأدبي والتصوف والاجتماع السياسي، وهو حاصل على جوائز عديدة منها: جائزة الدولة للتفوق، وجائزة اتحاد كتاب مصر في الرواية، وجائزة الشيخ زايد للكتاب، وجائزة الطيب صالح في القصة.

9 789772 937196

مكتبة الدار العربية للكتاب

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com